



السودانيون المقاتلون

The Fighting Sudanese

H. C. Jackson 1883-1962

تأليف

هنري سيسل جاكسون

المدير السابق لمديرية بربر وحلفا

ترجمة

بدر الدين حامد الهاشمي

هذا الكتاب

«يعرض الكتاب أربعة أحداث رئيسة وذات صلة بشجاعة السودانيين المقاتلين، أولها معركة توشكي التي خاضها الأمير عبدالرحمن النجومي ضد جيش السير فرانسيس قرينفيل (سردار الجيش المصري) عام 1889 ، وثانيها ولاء السودانيين للإمبراطورية البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى 1914-1918، حيث دعموها ماديا ومعنويا، وثالثها تعمد الشيخ الفقيه عبدالله محمد إدريس الملقب بالسحيني على «الكفرة الانجليز» في نبالا عام 1921 ، ورابعها اشتراك قوة دفاع السودان ومتطوعو القبائل في الحرب العالمية الثانية 1939-1945 ، وتحديدًا مجاهداتهم ضد الغزو الإيطالي في شرق السودان».

المؤلف

هنري سيسل جاكسون 1883-1962 تلقى تعليمه الجامعي في كلية تونبريدج وإكستر وأكسفورد وبعد تخرجه التحق بخدمة حكومة السودان عام 1907 بمكتب السكرتير الإداري ومديرية سنار والخرطوم والنيل الأزرق وأعلى النيل والبحر الأحمر وبربر وبحر الغزال وحلفا حيث تقاعد عن العمل وعاد إلى بريطانيا . عمل سكرتيرا للخدمات الاجتماعية بمجلس ليفربول. كتب العديد من الكتب عن تاريخ السودان، وعن تجربته الادارية في السودان، منها كتاب «سن النار: بعض الروايات عن مملكة سنار القديمة»، وكتابه عن «العاج الأسود والأبيض أو قصة الزبير باشا»، الذي صدر في 1913 ثم كتابه عن عثمان دقنه 1926، وكتابه بعنوان «أيام في السودان» الذي صدر عام 1954 وغيرها من الكتب، وقد ترجم معظمها الى اللغة العربية.

المترجم

ولد بدرالدين حامد الهاشمي بقرية «أم علي» في شمال السودان وتلقى تعليمه بالخرطوم، وتخرج في كلية الطب البيطري بجامعة الخرطوم عام 1975. حصل على درجة الدكتوراة من جامعة أدنبره عام 1981 في علم الأدوية وعمل أستاذا في جامعة الخرطوم، ثم في عدد من الجامعات في ليبيا والخليج. له بحوث علمية منشورة في مجلات علمية متخصصة ومحكمة نال عليها عددا من الجوائز العلمية. ترجم العديد من الكتب والروايات والمقالات.

الناشر

دار باركود مؤسسة تعليمية / ثقافية للتأليف والترجمة والنشر والتوزيع. تم افتتاحها حديثا مع تباشير العهد الجديد في يونيو 2019 بالخرطوم - الرياض مربع 21 بجوار كلية امبريال. تهدف الدار الى خدمة البحث العلمي وتنمية الوعي بنشر وترجمة الكتب الثقافية واصدار الكتب الجادة والمتميزة شكلا وموضوعا. كما تهدف إلى رفد المكتبة العربية بأحدث الإصدارات والتعريف بالانتاج الفكري السوداني وتسويق الكتاب السوداني.



E-mail: bcode@barcodebookshop.com



رابعك: 1-62-73-99942-978 ISBN:



السودانيون المقاتلون

The Fighting Sudanese

H. C. Jackson 1883-1962

تأليف

هنري سيسل جاكسون

المدير السابق لمديرتي بربر وحلفا

ترجمة

بدر الدين حامد الهاشمي

السودانيون المقاتلون

The Fighting Sudanese

H. C. Jackson 1883-1962

السودانيون المقاتلون

The Fighting Sudanese

H. C. Jackson 1883-1962

تأليف

هنري سيسل جاكسون

المدير السابق لمديرتي بربر وحلفا

ترجمة

بدر الدين حامد الهاشمي

الناشر



للنشر والتوزيع والتجدة
الخرطوم - الرياض

2020

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر - السودان

940.53

ج. من جاكسون، هنري سيسل، 1861 - 1913.

السودانيون المقاتلون / هنري سيسل جاكسون؛ ترجمة بدرالدين حامد الهاشمي -

ط1. الخرطوم : دار باركود للنشر والتوزيع والترجمة، 2020.

96 ص: خرائط؛ 24 سم.

ترجمة : لكتاب The fighting Sudanese

ردمك: 1-62-73-99942-978

1. الحرب العالمية الثانية 1939 - 1945. السودان - الجيش - تاريخ.

أ. بدرالدين حامد الهاشمي، مترجم ب. العنوان. ج. عنوان: The fighting Sudanese

الهيئة الاستشارية

1- قاسم عثمان نور

2 - الحاج سالم مصطفى

3 - بدرالدين حامد الهاشمي

4 - عبدالله الفكي البشير

التصميم والطباعة

سينان العالمية للطباعة

تصميم الغلاف

محمد الهادي السنوسي

الناشر



دار باركود

للنشر والتوزيع والترجمة
الخرطوم - الرياض

تلفون: ٢٤٩ ٩٩٩٨١٣٢٢٢ +

E-mail: bcode@barcodebookshop.com

www. barcodebookshop.com

2020

THE FIGHTING SUDANESE

BY

H. C. JACKSON

Formerly Governor of the Provinces of
Berber and Halfa in the Sudan

WITH A FORWARD BY
GENERAL SIR WILLIAM PLATT
G.B.E., K.C.B., D.S.O.

LONDON
MACMILLAN & CO LTD
NEW YORK. ST MARTIN'S PRESS
1954

كتب أخرى للمؤلف

- Osman Digna
- Tooth Of Fire
- Sudan Days And Ways
- Black Ivory And White
- The Neur Of The Upper Nile Province
- Gordon Pasha (Translated By Aziz Yusef El Masih)

كلمة الناشر الإنجليزي

لهذا الكتاب، على صغر حجمه، أهمية معينة، خاصة وأن كثيرا من السودانيين قد صوتوا للوحدة مع مصر بأكثر من الاستقلال التام أو نوع من الارتباط بالكومنويلث البريطاني.

ينبغي أن يقرأ هذا الكتاب كل من يرغب في الاطلاع على معلومات موثقة عن حقيقة مشاعر السودانيين.

ويقع الكتاب في ثلاثة أجزاء، يؤكد كل واحد فيها على شجاعة السودانيين، وإخلاصهم وولائهم للبريطانيين. غير أن معظم الكتاب مُكرّس لسرد الأعمال البطولية للسودانيين في غضون سنوات الحرب العالمية الثانية - وهي حرب لم يشارك المصريون فيها، على الرغم من أن القطر الذي لطالما تاقوا لحكمه كان مهددا بجيوش موسولينى المرابطة على حدود السودان مع الحبشة وأرتيريا.

ومهما يكن ما يخبئه القدر لمستقبل سكان هذا البلد العظيم، فإن كتاب «السودانيون المقاتلون» قد سجل سردا باقيا لأحداث تلك الأيام التي أحس فيها السودانيون بالفخار وهم يقاتلون جنبا إلى جنب مع البريطانيين رفقاء السلاح.

قدّم للكتاب اللواء وليام بلات، القائد البريطاني الذي كان على رأس تلك القوات التي قادت السودانيين للنصر في الحبشة وأرتيريا.

محتويات الكتاب

5	كلمة الناشر الإنجليزي
7	إهداء المؤلف
8	إهداء المترجم
9	شكر وعرفان (المؤلف)
11	مقدمة اللواء السير ويليام بلات
15	تقديم بقلم بروفيسور أحمد أبو شوك
29	الجزء الأول. الأيام الأولى
45	الجزء الثاني. قلاقل في دارفور
65	الجزء الثالث. الحربان العالميتان
131	الخرائط

إهداء المؤلف

أهدي هذا الكتاب إلى
شعب السودان
الذي تخدم بإخلاص
وحارب بشجاعة منقطة النظير
من أجل حرية الجنس البشري

إهداء المترجم

إلى والدي ... كما ربياني صغيرا
وإلى كل من علمني حرفا
وإلى وطني الكبير وعائلتي الصغيرة ...

شكر وعرفان (المؤلف)

أود أن أعبر عن شكري الجزيل للواء سير ويليام بلات، ليس فقط على كتابته لمقدمة لهذا الكتاب، ولكن أيضا لتفضله بقراءة مخطوطته، وتصحيح ما وجده فيها من أخطاء (وتقع مسؤولية ما بقي فيها من أخطاء علي وحدي). وأشكر كذلك العقيد براون من فيلق العرب الغربي (القيادة الغربية)، والسيد ك. د. هيندرسون، من القسم السياسي لحكومة السودان، والعميد أ. نوت والرائد برامويل ويزرس لمساعدتهم القيمة لي. والشكر موصول للورد رينيل، لورد رود وللسادة الناشرين (إيدوارد أرنولد) لسماحه بنقل جزء من قصيدة سير رينيل رود، ولحرر مجلة "السودان في رسائل ومدونات SNR" لسماحه لي باستخدام المعلومات عن الدفاع عن نيالا التي وردت في العدد الخامس والعشرين من المجلة. وأشكر كذلك السيدة روث هارقريف لتصحيحها لمسودة الكتاب. وكنت محظوظا وأنا أجمع المعلومات التي وردت في الفصل الثالث من الكتاب، إذ أنني كنت قد أستقيت المعلومات التي وردت به من وثائق ليست متاحة لعموم القراء. ومن المصادر المفيدة التي اطلعت عليها أذكر ما يلي:

مطبوعات حكومة السودان

Sudan Government Publications

Meadowforce, by Bimbashi A. C. Beaton.

Kassla at war, by B. Kennedy – Cooke, M.C.

The Composite Infantry Battalion in the Eastern Arab Corps,

Sudan Defence Force, in the Abyssinian Campaign, by el Miralai G. Gifford Bey.

The Sudan, a Record of Progress, 1898 – 1947.

The Upper Nile and the War (1940 – 41), by G. N. I. Morrison.

وثائق أخرى

Other Documents

Incident in the War in the Fung, 1940 – 41. From a talk by J. W. Robertson, at the Cultural Centre, Khartoum. Reprinted from Sudan daily Herald by Messrs. McCorquodale & Co. (Sudan Ltd.).

Retrospect. Lecture by Lieutenant – General Sir William Platt, K.C.B., D. S.O., at the Cultural Centre, Khartoum, 24 September 1941. Reprinted from Sudan daily Herald by Messrs. McCorquodale & Co. (Sudan Ltd.).

Sealed and Delivered, by G. L. Steer.

Sudan War –Time Economy. Text of a talk broadcast from Khartoum on 23 March 1944 by Mr. R. C. Couldrey, C.B.E., Controller – General of War Supply, Sudan government.

Survey of the Anglo – Egyptian Sudan, 1898 – 1941, by K.D.D. Henderson.

Survey of the Anglo – Egyptian Sudan, 1898 – 1944, by K.D.D. Henderson.

The Abyssinian campaigns: the official story of the conquest of Italian East Africa.

The Lees Knowles Lectures, by General Sir William Platt.

'The Sudan and Abyssinian campaign' by K.D.D. Henderson, published in the Journal of the Royal African Society, January 1943.

'The Sudan Defence Force goes to War', article by Brigadier A. J. Knott, O.B.E., in the Royal Engineers' Journal, vol Iviii, September 1944.

مقدمة

اللواء سير ويليام بلات

قائد القوات السودانية وقائد قوة دفاع السودان

أقدمت أرتال من قوات المشاة والمدفعية والمدركات الإيطالية على عبور الحدود الإرترية في هجوم متعدد المحاور على كسلا، تلك المدينة التجارية الصغيرة القريبة من حدود السودان الشرقية. وكان تحت قائد ذلك الجيش الايطالي الغازي ما لا يقل عن 10,000 من الجنود.

وكان لزاما لمقاومة ذلك الهجوم الضاري تحضير ثلاث سرايا بمدافع رشاشة متحركة وسرية مشاة راكبة من قوة دفاع السودان، كانت أثقل أسلحتها هي المدافع الرشاشة من نوع (303 فايكرز) والبنادق المضادة للدبابات (موديل 1938). لم يكن عدد تلك القوة يتجاوز ستمائة فردا، تحت قيادة عدد قليل من الضباط البريطانيين.

وظلت القوات الإيطالية من بزوغ الفجر حتى الغسق تهاجم القوات السودانية دون انقطاع تحت حماية من الطائرات المقاتلة والقاذفة، بينما كانت أقرب طائرة بريطانية تنشط في المنطقة قرب البحر الأحمر: ولم تكن في سماء كسلا أي طائرة لتفرح قلوب جنودنا وهم يتصبّبون عرقا تحت شمس الصحراء.

وطبقا لما تدربت عليه السرايا السودانية، واصل الجنود في تحركهم وهم يندفعون ويلدغون الأعداء وكأنهم بعوض آلي.

وسرعان ما ينسلون من الموقع بعد ذلك قبل أن يتخذ الإيطاليون أي خطوة دفاعية فعالة ضدهم. ويكررون نفس الهجوم الخاطف في موقع آخر، بعد دقائق معدودة، وربما بعد ساعة من هجومهم السابق.

وتسربت أنباء المعارك بصورة متقطعة إلى رئاسة قوة دفاع السودان بالخرطوم عبر 250 ميلا من الصحراء المنبسطة المفتوحة. وبلغت تلك الأنباء إلى أيادي متلهفة وقلقلة عن طريق لاسلكي غير منظم أو تلغراف السكة حديد. كانت الكثير من المعلومات التي بلغت الخرطوم تتسم بالغموض. وغدا الموقف ضبابيا تماما.

وتوالى الطلبات للحصول على طائرة لتطير فوق جيش العدو وتستطلع ما عنده. وكانت الطائرات التي يمكن أن تقوم بمثل تلك المهمة لا تزيد عن أربع طائرات من نوع فينسنت، صنعت في حوالي عام 1928م، ولا تزيد سرعتها عن 100 ميل في الساعة مع اتجاه الريح، وقد تكون محظوظة إن بلغت سرعتها 80 ميلا في الساعة إن طارت ضد اتجاه الريح. وتقرر أن تقوم الطائرات الأربع بطلعات في اليوم التالي على أمل أن تعود إحداها ببعض الأنباء.

لم يكن ذلك اليوم يوما للتضحيات، بل كانت ليلة للتخمين. هل سيقوم الإيطاليون، وقد بدأوا في تذوق طعم بعض الانتصارات، في الشروع في هجوم استراتيجي ضخم لتحقيق حلمهم في بسط سيطرة إيطالية (خضراء) على كل شمال وشرق أفريقيا، من طرابلس إلى المحيط الهندي؟ أم سيقنعوا باحتلال أميال قليلة من رمال الصحراء والثروة في جهاز اللاسلكي؟ وإن تجرأوا وتقدموا فهل سيهاجمون

السودانيون المستثمرون

غرب الخرطوم، عاصمة البلاد، أو شمال غرب البلاد في أتبوا، قلب السكة حديد، أو شمالا، حيث الميناء الوحيد بالسودان؟

وعبر آلاف الأميال من الحدود هاجم الايطاليون كسلا والقلبات، وهددوا نقاطا أخرى. ولم تكن هنالك من قوات سودانية تتصدى لهم سوى أعداد قليلة جدا من الجنود. وهذا مما ترك ثغرات واسعة في الحدود سدها السودانيون من رجال الشرطة والمفتشين المتحمسين والمتطوعون الشجعان ببنادق استعاروها أو شحذوها من هنا وهناك. وكانت هنالك خلف تلك الأعداد القليلة من هؤلاء ثلاث كتائب إنجليزية نظامية من يوركشير وويرسيسترشير واسكس.

وصمد السودان لشهرين كاملين حتى بدأت تصله تعزيزات في أغسطس وسبتمبر. وظل صامدا بقوة (وكأن آلة ما قد أمسكت به) بفضل ستة آلاف من الجنود السودانيين والفين من البريطانيين، ليس معهم جميعا أي دبابة ولا مدفع، وكل ما كان يملكونه هو بضع بنادق أتوماتيكية.

هل سبق لأي جنود في تاريخ هذا العالم أن تعرضوا لاختبار أقسى مما تعرض له أولئك السودانيين؟ لم يكونوا قد خاضوا منذ معركة أم درمان أي قتال ضد قوة معادية. كل ما صادفوه كان حركات تمرد محدودة وهبات قبلية متفرقة، وثورات داخلية. وكانت تلك هي غاية التجارب التي اكتسبوها عمليا في مجال القتال. ولم يكونوا قد قاسوا أو حتى رأوا من قبل أهوال الحرب الحديثة. كان اسم قوتهم قوة «دفاع».

السودانيون المقاتلون

أتى ذلك الاختبار القاسي مع غزو الايطاليين لبلادهم. ويعرض هذا الكتاب لبعض ما حدث في ذلك الغزو. ولا يمكن أن نعد ذلك الحدث حدثاً معزولاً عن غيره من الأحداث. لقد كان مثلاً واحداً فقط تبعته عدة أحداث تشابهه في الأسلوب والطراز، وفي الشجاعة وقوة التحمل، حينما وأينما يدعو داعي القتال والواجب. وأتى ردهم على شاطئ البحر الأحمر، وبين الصخور وأعشاب الرمح في الجرف المحيط بكرن والشلغا (Chilga)، ومناطق قوجام الماطرة الباردة، وفي مستنقعات «نتوء بارو» (بمنطقة غامبيلا الإثيوبية. المترجم)، وفي الجبال والغابات القريبة من أعالي النيل، وفي السهول والتلال القريبة من أرض الوطن.

وأفلحوا في اجتياز كل الامتحانات التي خاضوها، ونالوا - عن جدارة واستحقاق - وبكل فخر الاسم الذي أطلقه عليهم السيد هنري سيسل جاكسون: «السودانيون المقاتلون».

جراسمير، نوفمبر ١٩٥٣م.

تقديم

أحمد إبراهيم أبوشوك

ارتبط اسم جاكسون (Jackson) في أدبيات الحكم الثنائي (1898-1956م) في السودان بثلاثة شخصيات بريطانية، تركت بصماتها في مخيلة الشعب السوداني، لكن بعض الباحثين خلط بين هذه الشخصيات، ودمجها في معظم الأحيان في شخص واحد، ونذكر على سبيل المثال السفير عوض أحمد الضو، الذي ترجم كتاب هنري سيسل جاكسون (Sudan Days and Ways) إلى اللغة العربية بعنوان "أيامي في السودان"، حيث نسب طرفاً من حياة المؤلف إلى هاربرت وليم جاكسون، عندما ذكر في مقدمة ترجمته قائلاً: «كان جاكسون معروفاً بتعاطفه مع الفقراء والمحرومين، وخاصة الأرقاء، مما أكسبه محبة هذه الفئات على وجه خاص. وكانت آخر وظيفة شغلها تحت نظام الحكم الثنائي هي وظيفة مدير المديرية الشمالية، ورغم أنه توفي في بداية الخمسينيات من القرن الماضي؛ إلا أنه ما يزال هناك، في مروي، قصر فخم، وحديقة غناء باسمه، كما أنه دُفن في جبل البركل، المواجه لمروي في الضفة الأخرى من النيل.» (ص 11). والمقصود في هذا الاقتباس هو السير هاربرت وليم جاكسون (1861-1931م)، الذي درس في بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، ثم

التحق بالجيش المصري، وبعدها أنتدب لخدمة حكومة السودان عام 1899م، حيث عمل مديراً لمديرية بربر (1899م)؛ ثم سكرتيراً إدارياً، ونائباً للحاكم العام (1900-1901م). وبعد انتهاء خدمته بمكتب الحاكم العام، عاد مديراً لمديرية بربر عام 1902م، ومنها انتقل إلى مديرية دُنُقْلا (1902-1922م)، التي قضى فيها أطول سني خدمته بالسودان، ومن دُنُقْلا انتقل إلى وظيفة مفتش عام في الخرطوم (1922-1923م)، وأخيراً أثر التقاعد بمدينة مروي، التي أسس فيها شبكة واسعة من العلاقات الاجتماعية. وطاب له المقام في مروي إلى أن أدركته المنية في شتاء 28 يناير 1931م، ودُفن جثمانه بالمدينة التي أحبها واختارها موطناً لمعاشه. وبعد انتهاء مراسيم الدفن والعزاء، أقام المسؤولون والأهالي بمدينة مروي نصباً تذكاريّاً على قبر الجنرال الراحل، كما وصفت جريدة السودان الرسمية مراسيم تشييعه بأنها كانت فريدة في نوعها، حيث زُرقت فيها دموع المئات من الرجال والنساء، الذين طوقوا منزل جاكسون باشا، وشيعوا جثمانه المُسجّى بالعلم البريطاني إلى مثواه الأخير عند أطراف مدينة مروي الحزينة، تقديراً للفترة التي تقدر بربع قرن من الزمان، قضاها بين ظهرانيتهم صديقاً محبوباً وفاعل خيرٍ معطاءً. ويقال إنه في أواخر أيام حياته قد تزوج امرأة من منطقة مروي، وأنجب منها ابنه الوحيد عباس، والد نصر الدين عباس جكسا، الذي كان لاعب كرة قدم شهير في فريق الهلال والفريق القومي السوداني. وحسب الروايات المتداولة بين الناس إن اسم جده لأبيه قد دُوّن من سجلات المواليد والوفيات باسم «جكسا»

السودانيون المستانون

بدلاً عن جاكسون باشا، وإن ميدان جاكسون الذي يوجد في جنوب الخرطوم (الآن موقف للمواصلات العامة)، قد سمي تخليداً لذكراه، وتقديراً لأعماله الجليلة التي قدمها للسودان.

أما الشخصية الثانية التي حملت اسم العائلة (جاكسون) نفسه، فهو أرنست سمر فيلا جاكسون (1872-1943م)، الشهير جاكسون بك، والذي بدأ حياته العملية ضابطاً بالجيش البريطاني، ثم أنتدب للعمل في الجيش المصري عام 1898م، حيث ترقى إلى رتبة أميرلاي. اشترك جاكسون في الحملة التي قادها السير ونجت باشا ضد الخليفة عبد الله عام 1899م، وبعد أن استقام الأمر للحُكام البريطانيين في السودان، قضي جاكسون بك باقي حياته في خدمة حكومة السودان، وعمل نائباً لمدير مديرية دنقلا في أواخر سني خدمته. وتقاعد عن العمل الإداري بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914م، أثراً البقاء في مزرعة اشتراها من ضابطين مصريين (صبري ورياض) عام 1913م في منطقة منصوركتي، التابعة لعمودية قنتي بمديرية دنقلا آنذاك. وعندما قرر العودة إلى بريطانيا عام 1937م، عرض المزرعة في عطاء عام، وكان العطاء من نصيب السيد علي الميرغني، وأضحت تلك المزرعة تعرف لاحقاً بجنيانة السيد علي الميرغني.

أما جاكسون الثالث وصاحب الصلة بموضوع هذا التقديم، فهو هنري سيسل جاكسون (-1883 1962م)، الذي تلقى تعليمه الجامعي في كلية تونبريدج (Tonbridge) وإكستر (Exeter)، وأكسفورد (Oxford)، حيث حصل على المرتبة الثالثة

في الدراسات الكلاسيكية، والمرتبة الثانية في الأدب الإنساني. وبعد تخرجه التحق بخدمة حكومة السودان عام 1907م، حيث بدأ حياته العملية في مكتب السكرتير الإداري (1907-1908م)، ومديرية سنار (1909-1910م)، والخرطوم (1911-1913م)، والنيل الأزرق (1914-1919م)، وأعالى النيل (1920-1922م)، والبحر الأحمر (1923-1924م). وفي سنواته الأخيرة شغل وظائف إدارية عليا، شملت مدير مديرية بربر (1924-1926م)، ومحافظ بحر الغزال (1926-1927م)، ومدير مديرية حلفا (1928-1931م) إلى أن تقاعد عن العمل الإداري عام 1931م، وعاد إلى بريطانيا، حيث عمل سكرتيراً للخدمات الاجتماعية بمجلس ليفربول (1932-1945م)، وتوفي عام 1962م. وقد عُرف هنري سيسل جاكسون بمؤلفات عديدة عن تاريخ السودان وعن تجربته الإدارية في ذلك القطر المنبسط الأطراف آنذاك في ظل وسائل مواصلات بدائية. وقد استهل مؤلفاته بكتابه الموسوم بـ "سن النار: بعض الروايات عن مملكة سنار القديمة *Tooth of Fire: Being account on the Ancient Kingdom of Sennar*، 1912م، والذي ترجمه إلى اللغة العربية الحاج سالم مصطفى؛ وثانيهما كتابه عن "العاج الأسود والأبيض، أو قصة الزبير باشا، تاجر الرقيق والسلطان، كما روى بنفسه (Black Ivory & White: Or, The Story Of El Zubeir Pasha, Slaver & Sultan, As Told by Himself)، 1913م؛ وثالثها كتابه عن "عثمان دقنة" (1926م، *Osman Digna*م، والذي نقله إلى العربية البروفسيور بدر الدين الهاشمي؛ ورابعها كتابه عن "السودانيون

السودانيون المقاتلون

المقاتلون“ 1954، (Fighting Sudanese) م؛ وخامسها كتابه عن
”أيامي في السودان“ 1954، (Sudan Days and Ways) م، والذي
نقله إلى اللغة العربية السفير عوض أحمد الضو؛ وسادسها كتابه
عن ”ما وراء السودان الحديث“، (Behind the Modern Sudan)
1955 م؛ وسابعها ”قس على النيل: بعض الروايات لحياة لويلين هـ.
جوين ورسائله“ (Pastor on the Nile-Being some Account
of the Life and Letters of Llewellyn H. Gwynne)، 1960،
الذي لم يُترجم بعد.

ما أهمية كتاب «السودانيون المقاتلون»؟

يعرض الكتاب أربعة أحداث رئيسة وذات صلة بشجاعة
السودانيين المقاتلين. أولها، معركة توشكي التي خاضها الأمير
عبد الرحمن النجومي ضد جيش السير فرانسيس قرينفيل
(سردار الجيش المصري) عام 1889 م؛ وثانيها ولاء السودانين
للإمبراطورية البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى (1914-
1918 م)، حيث دعموها مادياً ومعنوياً؛ وثالثها، تمرد الشيخ الفقيه
عبد الله محمد إدريس الملقب بالسحيني على «الكفرة الإنجليز» في
نيالا عام 1921 م؛ ورابعها اشتراك قوة دفاع السودان ومتطوعو
القبائل في الحرب العالمية الثانية (1939-1945 م)، وتحديدأ
مجاهداتهم ضد الغزو الإيطالي في شرق السودان. والكتاب في مجمله
لا يخلو من بعض الإيماءات الاستشراقية والخطاب الاستعلائي،
عندما يصف جاكسون أنصار الإمام المهدي «بالدراويش»، وينعت

الإيطاليين «بالمستعمرين الجبناء» في مقابل وصفه للبريطانيين بأنهم رسل رحمة، جاؤوا لإنقاذ السودان وأهله من براثن الحكم المهديوي الظالم. لا يُعدّ الكتاب مصدراً أولياً وفق المعايير الأكاديمية المعتمدة؛ لأن جاكسون ألفه بعد عودته إلى بريطانيا، واعتمد في تأليفه على كمٍ مقدّرٍ من المصادر الأولية والثانوية، التي ساعدته في بناء مدونته التاريخية؛ لكن الشيء الذي لفت نظري أن كتاب «كيف أُعدّ السودان الحديث» (The Making of the Modern Sudan)، الذي جمع ك.د.د. هندرسون فيه مراسلات السير دوغلاس نيوبولد، لم يحظ باستشارة المؤلف، علماً بأنه يحتوي على معلومات أولية عن الحرب العالمية الثانية وتداعياتها في السودان، وذلك بحكم أن صاحب المراسلات كان من ضمن الإداريين البريطانيين الذين عاصروا الحرب وتحدياتها في السودان، وقاموا بدور مؤثر في إدارة شؤونها السياسية والعسكرية آنذاك. لكن هذه الملاحظة لا تقدح في قيمة الكتاب، لأنه يكمل الصورة الخاصة بأحداث الحرب العالمية الثانية، كما يوثّق لشجاعة السودانيين المقاتلين من خلال الأحداث التي سردها المؤلف عن معركة توشكي، والقضاء على تمرد الفقيه السحيني، والحرب العالمية الثانية في شرق السودان، كما يتطرق لوفاء وجهاء المجتمع لحكومة صاحب الجلالة أثناء الحربين العالميتين. وفي إطار كتاب «السودانيون المقاتلون» نلاحظ أن هناك بعض القضايا التي تحتاج إلى إضاءات كاشفة.

أولاً: نلاحظ أن المؤلف جاكسون قد أولى اهتماماً خاصاً لشجاعة السودانيين المقاتلين في مواقف حربية عديدة، ونذكر منها تلك التي

السودانيون المستقلون

ارتبطت بحملة عبد الرحمن النجومي على مصر، حيث واجه الانتصار (ال دراويش) أجلهم المحتوم في معركة توشكي 1889م؛ بالرغم من أن الهزيمة كانت متوقعة؛ إلا أن المؤلف أظهر أعجاباً واضحاً بشجاعة الأمير عبد الرحمن النجومي، الذي وصفه بإيمانه القاطع: «بصلاح المهدي، وصحة دعوته»، وأكد أن خصومه كانوا «يحترمونه لشجاعته وشكيمته ومهارته، ويعدونه أفضل في مجال القيادة من الأمير عثمان دقنة، الأكثر شهرة». كما يصف جاكسون تصميم النجومي على خوض المعركة ضد جيش الجنرال قرينفيل، بقوله: «وظلت رايات أمراء الدراويش ترفرف في وسط حرارة ذلك الصيف الحارق، تتحدى (بضعف شديد) ذلك الجيش المدجج بالأسلحة الفتاكة الموجهة نحوهم. وكان بعض مقاتلي الدراويش يتمنون لو كان بمقدورهم الفرار من المصير المحتوم الذي كان ينتظرهم، بينما تسرب الشك إلى نفوس بعضهم من صحة الدعوة التي هبوا من أجل نصرتها، وهل هي بالفعل تستحق منهم التضحية بالحياة. غير أن ود النجومي بقي وحده هادئاً مطمئناً وثابتاً على موقفه. وخاطب قواده وأفراد جيشه بما يفيد أنه لا أمل في الانتصار، وطلب من كل من تسرب الشك أو الخوف إلى قلبه، أو من يريد التراجع عن قبوله بدعوة المهدي أن يغادر. أخبرهم بصريح العبارة أنه لا يستطيع أن يعدهم بأي أمل في النصر، غير أنه يعدهم بميتة الشهداء، وحياة مخلدة في دار النعيم، تنتظرهم إن هم بقوا على عهدهم وحربهم ضد عدوهم. ولوح بسيفه وهو يخبرهم بأنه لن يحيد عن الدعوة المهدية، أو يهجر مهمته المقدسة. وأحيت خطبته الحماسية تلك ما

اندثر من أمل ورجاء عند مقاتليه، ولم يرض بالانسحاب من ساحة المعركة سوى خمسمائة منهم.» لكن مثل هذه الشجاعة الخارجة عن المؤلف تعطي انطباعاً بأن القائد الذي ينطلق من منصة أيديولوجية في أغلب الأحيان تغيب عن ذاكراته الرؤية الاستراتيجية في الحرب وفنّها؛ لأن الحرب ليست غاية في ذاتها، بل وسيلة لتحقيق مكسب سياسي استراتيجي، فإذا كانت الهزيمة محسومة سلفاً فلا داعي إلى خوضها؛ لأن الهزيمة تقضي إلى ضياع الهدف الذي من أجله أُسست فكرة الحرب نفسها. ومن زاوية أخرى نلاحظ أن المؤلف قد سخر من شجاعة بعض السودانيين المقاتلين، لأنها من وجهة نظره كانت شجاعة تدل على عدم «المبالاة وعدم الاكتراث، وهذا ما أحدث قلقاً كبيراً عند قادتهم». ويستشهد في ذلك بحادثة مأساوية كان ضحيتها أحد الهدندوة، استلقي «على ظهره إلى جانب قنبلة لم تنفجر.. [ثم] أخذ عصاً صغيرة، وطفق ينقر على القنبلة إلى أن انفجرت فجأة فيه، ومزقته إرباً أمام ناظري ولده الصغير». ولا جدال في أن مثل هذه الحوادث تجمع بين الجهل من طرف وعدم المبالاة من طرف ثانٍ، دون أن تُصنف بأنها سلوك شجاع، كما يرى تور نوردنستام (Tore Nordenstam) في مؤلفه «الأخلاق السودانية» (Sudanese Ethics).

ثانياً: يعطى مؤلف (السودانيون المقاتلون) إشارة مهمة على قدرة السودانيين في إدارة حياتهم المدنية في ظل ظروف الحرب الصعبة وإفرازاتها السالبة، وإذ يذكر مدينة كسلا التي ظلت في «أيدي الإيطاليين لنصف عام كامل. غير أنه على الرغم من الأخطار

والحرمان، واصل مجلس المدينة تحت قيادة السيد محمد عثمان الميرغني وشقيقه السيد الحسن الميرغني عمله بأفضل ما يمكن؛ ومن جانب آخر يثني جاكسون على دور الإداريين السودانيين الذين تولوا مناصب إدارية-تنفيذية أثناء فترة الحرب، فمارسوا عملهم «بكفاءة واقتدار، فكانوا مصدر فخار لأنفسهم وفائدة للآخرين.» ويقودنا هذا النجاح إلى طرح سؤال محوري: لماذا نجح السودانيون في إدارة شؤونهم الحياتية في ظل الإدارة الاستعمارية، وفشلوا في أداء الدور نفسه بعد أن نالوا استقلالهم عام 1956م، لدرجة جعلت الدكتور منصور خالد يصف النخبة منهم بإدمان الفشل؟ هل يُعزى فشل النخبة السودانية إلى قابلية العقل السوداني للاستعمار، كما يصف مالك بن نبي الشعوب التي عجزت عن تطوير بلدانها بعد خروج المستعمر الأوروبي؟ لكن الدكتور جعفر محمد علي بخيت (ت. 1975م) يبرر فشل النخبة السودانية بقوله: «الاضطراب وعدم الاستقرار السائدان في الحياة العامة [في السودان] ليس سببهما عوامل خلقية، أو قصور في الخيال، أو جموح إلى طلب السلطة، وإنما مرده إلى طبيعة عجز السلطة المركزية من خلق ولاء طاغي يجذب نحوه الولاء القطاعي، ويجعله يدور حول فلكه، ولا يسمح لقطاع معين بأن يسيطر عليه حتى لا يمحو قيمه العامة بقيم محدودة. والذي يعجز السلطة المركزية عن ذلك هو تشكيل القوى الضاغطة في المجتمع السوداني، وطبيعة تشكيلها الاجتماعي، ثم حاجة النظام البرلماني إلى سند شعبي، لا يتوفر إلا داخل تشكيلات هذه القوى بوضعها الراهن.» لكن لا شك في أن هذا الاقتباس المرتبط بمبررات

دكتور جعفر لفشل النخبة السياسية يحتاج إلى بحث أعمق، وفي فضاء أكاديمي آخر غير فضاء هذا التقديم.

ثالثاً: أشار المؤلف إلى شخصيتين مهمتين أثناء الحرب العالمية الثانية وانعكاساتها على شرق السودان. أولهما، إيفانز بريتشارد (Evans-Pritchard)، عالم الانثروبولوجيا البريطاني، الذي كان ملازماً للجنود السودانيين أثناء حركتهم في الأماكن التي احتلها الإيطاليون، حيث كان مشغولاً بجمع بعض المعلومات المرتبطة بدراساته الانثروبولوجية عن قبائل الزاندي، والأنوك، والنوير في جنوب السودان. وفي تلك الاثناء قام بريتشارد بدور "انثروبولوجي الحكومة" الاستعمارية؛ لوضع بعض الطرق المحفزة للقبائل النيلية على الاشتراك في الحرب ضد الإيطاليين، ولكنه بعد انتهاء الحرب أضحي مهتماً بالذهاب إلى العمل الميداني دون الاستعانة بأي مرشد، أو مخبر، أو معاون، محتجاً بأن مثل هذه التجربة تدفعه إلى تعلم لغة الأهالي، واستيعاب طرائق تفكيرهم، ومعرفة القيم الحاكمة لتصرفاتهم الأخلاقية، وتحديد مسارات سلوكهم الاجتماعي. ومن هذه الزاوية، يُعد إيفانز بريتشارد رائداً في مجاله؛ لأن أصدر جملة من الدراسات الانثروبولوجية الفاحصة التي أضافت بُعداً آخر لأدبيات المدرسة البنيوية الوظيفية.

أما الشخصية الثانية فهو الإمبراطور هिला سلاسي (1892-1975م)، الذي فرَّ بعد احتلال الإيطاليين لإثيوبيا عام 1936م إلى الصومال الفرنسي، ثم ذهب إلى القدس تحت الانتداب البريطاني هو وعائلته، ثم ذهب بعد ذلك إلى جبل طارق، ومنه واصل رحلته

السودانيون المقاتلون

إلى إنجلترا، حيث عاش في مدينة باث (1936-1941م). وفي طريق عودته إلى أثيوبيا عاد عن طريق السودان، وحسب رواية جاكسون قضى الإمبراطور الطريد عدة شهور بالقصر الوردي (Pink Palace) في الخرطوم، ثم تحرك إلى إثيوبيا في 21 يناير 1941م في عملية سرية تحت قيادة العقيد ساندفور، ودخل العاصمة أديس أبابا دخول الفاتحين، على ظهر حصان في 5 مايو 1941م، أي بعد خمسة أعوام من احتلال الإيطاليين لإثيوبيا. ونورد في هذا التقديم قصة عودة هिला سلاسي عن طريق السودان وإقامته السرية في الخرطوم؛ لأنها من القصص التي لم تذكر في الأدبيات السودانية المعاصرة.

وفي ختام هذا التقديم، لا أخال أن البروفيسور بدر الدين حامد الهاشمي يحتاج إلى إطراء معرفي، أو شهادة براءة في مجال الترجمة، بل يكفي فخراً أنه قد ترجم ونشر أكثر في ثلاثة عشر مجلداً في سلسلته المعروفة بالسودان بعيون غربية، فضلاً عن الترجمات القائمة بذاتها، والتي يتجاوز كمها الاثنا عشر كتاباً بين رواية أدبية ومؤلف تاريخي. وبترجمة وإصدار «السودانيون المقاتلون» (The Fighting Sudanese)، 1954م، يكون الهاشمي قد ترجم كتابين وفصول متعددة من كتب هنري سيسل جاكسون، البالغ عددها سبعة كتب، وذلك باستثناء كتابه «سن النار: بعض الروايات عن مملكة سنار القديمة (Tooth of Fire: Being Account on the Ancient Kingdom of Sennar)، 1912م، والذي ترجمه الحاج سالم مصطفى؛ وكتابه «أيامي في السودان» (Sudan Days and Ways)، 1955م، الذي ترجمه السفير عوض أحمد الضو؛ وكذلك

كتاب "قس على النيل: بعض الروايات لحياة لويلين ه. جوين ورسائله" (Pastor on the Nile-Being Some Account of the Life and Letters of Llewellyn H. Gwynne)، 1960، الذي لم يترجم بعد. وبهذه الإصدارات يكون الهاشمي قد أعاد جاكسون إلى دائرة الضوء، ووضع في موضع يليق به بين رصفائه من البريطانيين الذين أصدروا أعمال ذائعة الصيت عن تاريخ السودان وتركيبته الاجتماعية، أمثال السير هارولد ماكمايكل (Sir Harold McMichael)، وأ. جي. أركيل (A.J. Arkell)، ورتشارد هل (Richard Hill)، وإيفانز برتشارد (Evans-Pritchard).

الجزء الأول
الأيام الأولى

الأيام الأولى

وأعز من ذلك الأخوة
التي تربط شجعان العالم بأسره
نيوبولت، سباق الجزيرة
مصل كلية كليفتون

And dearer yet the brotherhood
That binds the brave of all the earth
Newbolt, The Island Race
Clifton College Chapel

السودان هو بلاد محاربين منذ قديم الزمان. وقد بسط
السودانيون سيطرتهم على طيبة في مصر من قبل عام 750 قبل
الميلاد، ثم انتصروا على مصر بأكملها بعد ذلك بسنوات قليلة.
وعبر العصور كانت شعوب السودان في حالة حروب واقتتال
فيما بينها، كما تدل السجلات القليلة المتوفرة. ونقل لنا طرفا من
تلك الأحداث بعض من الرحالة الذين كانوا يزورون تلك البلاد
النائية بصورة متقطعة. وثبت أن ذلك التقاتل المستمر كان سبب
خراب البلاد وسقوط ممالكها. فعلى سبيل المثال غزا إسماعيل
باشا السودان في 1820م قادما من مصر، التي كانت يومها جزءا
من الخلافة العثمانية. ولم يجد إسماعيل باشا صعوبة كبيرة في
هزيمة المعارضة الضعيفة التي واجهته في بعض المناطق من قليل

من القبائل المتشاكسة، خاصة وأن جيشه كان جيد التسليح. وبعد أن دان الأمر للحكم التركي - المصري أذاق الشعب الأمرين بسبب فساد إدارته وقلة كفاءته وقسوته المفرطة. ولما طفح الكيل بالناس، ثاروا عليه.

وفي عام 1881م ظهر ولي صالح اسمه (محمد أحمد) لم يكن لديه كبير شيء سوى سمعته الحسنة كرجل تقي ورع. وبدأ يلتف حوله بعض المريدين والأتباع الذين آمنوا بدعوته من أجل إنهاء حالة البؤس التي كانوا يكابدونها. وأفلحوا في هزيمة جنود الحكم التركي - المصري في كل المعارك التي خاضوها ضده وليس معهم من أسلحة إلا المدي والحرا ب والسيوف. وكانت أعدادهم تزيد وتزيد مع كل انتصار يحرزونه. وقتلوا أو أسروا 20,000 من الجنود المدربين والمسلحين تسليحا جيدا، وغنموا منهم نحو 21,000 بندقية وتسعة عشر مدفعا. وفي يوم 26 يناير 1885م أفلحوا في إسقاط الخرطوم، عاصمة الحكم التركي - المصري. وقتل في ذلك اليوم الجنرال غردون، وطُرد الأتراك والمصريين من السودان.

وأرسلت بريطانيا جنودها إلى وادي حلفا لحماية مصر من الغزو، بينما أنصرف سير ايفيلين وود ولورد وليسلي والسير هيربرت كتشنر إلى بناء جيش مصري جديد عوضا عن ذلك الذي حطمه الدراويش.

ولأحد عشر عاما ظل أنصار محمد أحمد وخليفته عبد الله يشكلون تهديدا خطيرا لمصر، وفي إحدى سنوات حكم الخليفة عبد الله قامت دولة المهديدة بإرسال جيش بقيادة عبد الرحمن ود النجومي لغزو مصر، غير أنهم أخفقوا في عبور الحدود.

السودانيون المستأمنون

تثبت قصة تلك المحاولة الفاشلة لغزو مصر مقدار إخلاص وتفاني ووفاء قائد من كبار قادة المهدي للدعوة التي آمن بها، وتثبت أيضا شجاعة وإقدام السودانيين الذين تبعوه إلى ساحة تلك المعركة. لقد كان عبد الرحمن ود النجومي أعظم أمراء الدراويش - فقد كان محاربا شجاعا واستراتيجيا ماهرا وشديد التعصب. وكان هو من خطط للقضاء على جيش هكس باشا، حين قتل أو أسر 10,000 من رجاله. وبعد خمسة عشر شهرا من تلك المعركة (في شيكان. المترجم)، أدى دورا مهما وحاسما في الاستيلاء على الخرطوم ومقتل الجنرال غردون.

لقد كان النجومي شديد الإيمان بصلاح (في الأصل قدسية divinity. المترجم) المهدي وصحة دعوته فانخرط في خدمته وخدمة الخليفة عبد الله من بعده بكل إخلاص وإجادة. وكان أتباعه يبجلونه لزهده وإخلاصه وقدراته الفائقة، بينما كان خصومه يحترمونه لشجاعته وشكيمته ومهارته، ويعدونه أفضل في مجال القيادة من الأمير عثمان دقنة، الأكثر شهرة، والذي أكسبته مناوشات القر والكر التي خاضها ضد البريطانيين والقوات الاستعمارية شهرة سيئة (notoriety) لعبقريته العسكرية التي لا يمكن تبريرها.

لم تكن ذكرى عثمان دقنة لتبقى بمثل ما بقيت به إلا بسبب شجاعة وإقدام مقاتليه من الهدندوة (الذين خلدتهم قصيدة كيبلنج "فيزي ويزي") عندما حطموا المربع البريطاني في تاماي.

وكان تكليف الخليفة لعبد الرحمن ود النجومي بمهمة غزو مصر هو بمثابة خطوة الخليفة الأولى نحو السيطرة على مكة، ومن ثم بسط سيطرة حكمه على سائر العالم المأهول.

وبدأ ود النجومي مسيرته شمالا من أم درمان في الأيام الأولى من عام 1889م. ولم يغادر مدينته إلا بعد أن أحرق بيته وأقسم ألا يعود إليه إلا إذا أفلح في الاستيلاء على مصر. وبلغ مشارف مدينة وادي حلفا في نهاية يونيو من ذات العام.

وفي الثاني من يوليو بدأ أول صدام لجيش ود النجومي مع الجنود الذين كانوا مكلفين بحراسة الحدود المصرية في "أرقين" التي تبعد عن وادي حلفا مسافة ثلاثة أميال ونصف. وهجم الأنصار، بشجاعتهم المعهودة على عدوهم عديد المرات، غير أن أسلحتهم التي كانت لا تزيد عن الحراب وقليل من البنادق، ولم يكن لها أن تهزم جيشا مدربا قوي التسليح الناري. فتم دحر هجومهم وقتل منهم 900 فردا. وفرأو أسر بعض الذين نجوا من القتل، بينما مات بعضهم في الصحراء بسبب الجروح التي أصابتهم. وكان العدد الكلي لما خسره ود النجومي في تلك المعركة قرابة ألفين من أنصاره.

وغدا موقف الدراويش الآن شديد الحرج. فقد قطعوا مسيرة 600 ميلا من عاصمتهم أم درمان. وكانت وسائل نقلهم في غضون شهور تلك المسيرة تتناقص بوتيرة متسارعة مع زيادة خطوط اتصالاتهم. وكان هؤلاء الأنصار المحاربون (وعدهم يتجاوز 5500، مع 8000 من أفراد عائلاتهم)، وهم في مسيرتهم شمالا، قد قضوا على كل ما معهم من زاد قبل أن يبلغوا مقصدهم، فاضطروا لذبح ما كان معهم من جمال وخيول وحمير، وفقدوا بذلك وسائل النقل التي كانت تتيح لهم العودة لديارهم سالمين. وعندما قربوا من الحدود المصرية، لم يكن معهم من الطعام شيء، وكان عليهم السير لمسافة 200 ميلا أخرى شمالا قبل أن يحصلوا على الطعام في مصر. وكانت تجوب

الروائيون المستأثرون

مياه النيل بمحاذاة قواتهم قوارب حربية مصرية مزودة بمدافع، كانت تمنع عن جيش الأنصار الذي يكابد الجوع وصول أي مدد من أي نوع. ولم يبق على أولئك المقاتلين الأنصار إلا أن يأكلوا الأعشاب وأوراق شجر النخيل الجافة ومسحوق نوى التمر.

ولقلقه وحرصه على حياة مقاتلي الأنصار ومن معهم من العائلات دعا السردار (أي القائد الأعلى للجيش المصري) سير فرانسيس قرينفيل عبد الرحمن ود النجومي للاستسلام، وأبان له أنه لن يكسب هذه الحرب أبدا، خاصة وجيشه منقطع في الصحراء يعاني من انعدام الزاد وسوء التسليح. جمع ود النجومي قادة جيشه وقرأ عليهم رسالة السردار جملةً جملة. لا بد أن ذلك المشهد كان شديد الإثارة. فقد تجمع في تلال تلك البقعة الجرداء آلاف من الدراويش وهم في زيهم المرقع (علامة الزهد والفقر، وشعار التضحية من أجل المبادئ التي من أجلها يبذلون أرواحهم) مع أفراد عائلاتهم الذين عضهم الجوع بنابه، وهم يشعرون بالإحباط واليأس وخيبة الأمل.

وظلت رايات امراء الدراويش ترفرف في وسط حرارة ذلك الصيف الحارق، تتحدى (بضعف شديد) ذلك الجيش المدمج بالأسلحة الفتاكة الموجهة نحوهم. وكان بعض مقاتلي الدراويش يتمنون لو كان بمقدورهم الفرار من المصير المحتوم الذي كان ينتظرهم، بينما تسرب الشك إلى نفوس بعضهم من صحة الدعوة التي هبوا من أجل نصرتها، وهل هي بالفعل تستحق منهم التضحية بالحياة. غير أن ود النجومي بقي وحده هادئا مطمئنا وثابتا على موقفه. وخاطب قواده وأفراد جيشه بما يفيد أنه لا أمل في الانتصار، وطلب من كل

من تسرب الشك أو الخوف إلى قلبه أو من يريد التراجع عن قبوله بدعوة المهدية أن يغادر. أخبرهم بصريح العبارة أنه لا يستطيع أن يعدهم بأي أمل في النصر، غير أنه يعدهم بميتة الشهداء وحياة مخلدة في دار النعيم تنتظرهم إن هم بقوا على عهدهم وحربهم ضد عدوهم. ولوح بسيفه وهو يخبرهم بأنه لن يحيد عن الدعوة المهدية أو يهجر مهمته المقدسة. وأحيت خطبته الحماسية تلك ما اندثر من أمل ورجاء عند مقاتليه، ولم يرض بالانسحاب من ساحة المعركة سوى خمسمائة منهم.

وأرسل ود النجومي رده على رسالة السردار، وجاء في نهاية رده ما مضمونه التالي: "أما ما ذكرته بخصوص أعداد جيشك الكبيرة، فهو لا يخيفنا البتة. لا نخاف إلا الله وحده."

وبعد تلقيه رد ود النجومي قرر السردار قرينفيل الهجوم. وبالفعل بدأ الهجوم في الثالث من أغسطس عام 1889م في منطقة (توشكي). وكان آخر ما سمعه الدراويش من أميرهم ود النجومي قوله لهم بأن هذا اليوم هو اليوم الذي ينبغي لنا فيه أن نستعد للقاء خالقنا. (جاء في موقع "وزارة الدفاع السودانية" <https://bit.ly/2m1MxfJ> أنه ورد في رد النجومي على السردار التالي: "ندعوك للإسلام ولا تعتمد على قوة جيشك وعتادك، فإن الله سينصر عباده المؤمنين". المترجم)

لا ريب أن ود النجومي كان قد قاد جيشه بحنكة ومهارة عظيمتين، غير أن نتيجة قتاله كانت محسومة سلفاً. جرح ود النجومي مرتين أو ثلاثة مرات. ولما تبين له أنه قد خسر المعركة فعلا

السودانيون المعتقلون

حاول الفرار على ظهر جمل (لقراءة رواية مغامرة لما أورده الكاتب عن عبد الرحمن النجومي ومقتله يمكن الاطلاع على ما ورد عنه في موقع «وزارة الدفاع السودانية» المذكور أعلاه. المترجم).

وعند انتهاء المعركة بحث البريطانيون في ساحة القتال عن جرحى الدراويش ليساعدوهم، فوجدوا جثة عبد الرحمن ود النجومي ملقاة بجانب الجمل الذي حمّله لآخر مرة، وبالقرب من جثة أحد أولاده، وكان في الخامسة من العمر. ومن بين كل الآلاف من المقاتلين وعائلاتهم الذين غادروا أم درمان في تلك الحملة قاصدين فتح مصر، نجح 1000 مقاتل و2000 من أفراد عائلاتهم في الفرار من ساحة المعركة. وكان من ضمن هؤلاء ابن آخر من أبناء ود النجومي عمره لا يتجاوز العام. وتم حجز ذلك الطفل في معسكر البريطانيين وتكليف ممرضة بريطانية للعناية به. وفي ذلك قال اللورد كرومر: «من بين كل أبناء الأرض ليس بإمكان الا القلة النادرة جدا أن تلقى مصيرا يتغير بصورة كاملة عن طريق صدفة محضة مثل ذلك الطفل. فعوضا عن أن ينشأ كارها ومعاديا للمسيحيين في وسط أجواء بَربريّة في السودان، تولته بالرعاية أيادي راهبات إنجليزيات في أكبر مستشفيات القاهرة، وأمعن في تدليله، وكن مخلصات في العناية به، وعملن بكل تأكيد كخادمات له بأكثر مما كانت ستفعل النساء اللواتي كان والده سيقبض عليهن ويسبهن في وسط أفريقيا.»

لم يكن ليخطر على بال اللورد كرومر أن ذلك الطفل الصغير سيغدو عدوا للبريطانيين الذين أحبوه ونصروه وأغدقوا عليه الرعاية صغيرا، ولما شبَّ عن الطُّوق أوجدوا له وظيفة في سلاح الفرسان!



ورد في مقال بصحيفة «الانتباهة» لعماد الحلاوي التالي عن ابن عبد الرحمن النجومي، واسمه عبد الله:

<https://www.sudaress.com/alintibaha/37563>

«... عبد الله أخذه الإنجليز بعد معركة توشكي إلى بريطانيا وقاموا بتعليمه وتدريبه كما قاموا بتنصيره، وشارك تحت إمرتهم في قوة دفاع السودان عام (1942م) وعينه الإنجليز مأمورًا على كبويتا، وتزوج من بريطانية وأنجب منها ولدًا يعمل الآن هناك طيارًا، ثم عاد إلى مصر وعاد إلى الإسلام أكثر قوة وتقوى. وفي مصر عُيِّن قائد مقام (كبير الياورات) للملك فاروق، ولحمد نجيب بعد الثورة حتى يوليو (1952م)، وترقى إلى درجة مساعد، وعضو مجلس إدارة معهد فؤاد الأول لبحوث الصحراء. كان علامة في الطيور وله كتاب بعنوان (الطيور المصرية) صدر عام 1950م. ولعب اللواء عبد الله النجومي بأشأ أدوارًا سياسية كبرى في تاريخ مصر السياسي خاصة إبان ثورة 23 يوليو. وعندما قدّم اللواء محمد نجيب استقالته من الجيش، أقنعه الياور عبد الله النجومي بأشأ بسحبها. وبعدها عمل مديرًا لحديقة الحيوانات بالجيزة، وتزوج من مصرية وولد منها ابنه الوحيد (إبراهيم) الذي يعمل الآن طيارًا بوقاية النباتات. المترجم)



وبعد مرور ست سنوات فحسب على تولى السير ايفيلين وود

السودانيون المستقلون

منصب سردار للجيش المصري الجديد، أفلح الرجل في غضون ذلك الوقت القصير في إنشاء جيش له قوة عسكرية حديثة ضاربة استطاعت أن تعيد احتلال السودان وتزيل سيطرة دولة الدراويش عن الوجود.

وتم في ذلك الجيش تعيين ثمان كتائب من الفلاحين المصريين، وسبع كتائب من زنوج جنوب السودان (الكتيبة التاسعة إلى الخامسة عشر)، أدت أدوارا عظيمة وحاسمة في الحملة النيلية بين عامي 1896 و1898م.

وليس من أغراض هذا الكتاب الخوض في تفاصيل تلك الحملة النيلية، فقد كفانا ما سطره بتفصيل وإجادة كاملتين السير ونستون تشرشل، وكتاب آخرون. وسأسرد هنا بعض وقائع وأحداث تلك الحملة التي لم تجد لها نصيبا كبيرا من الذبوع والانتشار.

وإن ركزت في سردي على الأعمال البطولية التي قامت بها الكتيبة السودانية الحادية عشر، فليس مرد ذلك أنها كانت أشجع من غيرها، بل لأنني شرفت برؤيتها أكثر من غيرها إبان عملي في الإدارة بالسودان، وناقشت مع ضباطها تاريخها العسكري. ويكفي أن نذكر أنه ما من معركة دارت في السودان إلا وكان لهم فيها مشاركة قتالية نشطة، بدءًا من حصار سواكن في 1888م إلى معركة أم درمان في 1898م، وحراسة جبل نيام في عام 1916م. وفر الدراويش من أمام تلك الكتيبة في معارك شملت توشكي وطوكر وجميزة وحفير. غير أنهم أبدوا تميزا خاصة في الحملة النيلية.

تألف جيش كتشنر الذي زحف جنوبا من 35,000 رجلا،

كان ثلثهم من البريطانيين، وثلثهم من السودانيين، والثلث الباقي من المصريين. غير أن عبء القتال وقع أكثر ما وقع على عاتق الجنود البريطانيين والسودانيين، كما تثبت ذلك إحصائيات القتلى والجرحى. ففي المعارك الرئيسية في "أبو حمد" و"أتبرا" و"أم درمان" قتل من الجنود السودانيين 74 فردا، وجرح 498. وقتل من الجنود البريطانيين 54 فردا، وجرح 488. وفي المقابل قتل من الجنود المصريين ستة أفراد، وجرح 61.

وفي معركة «أتبرا» التي وقعت في أبريل من عام 1898م قامت الكتيبة السودانية الحادية عشر بمسيرة سريعة وطويلة إجبارية (Forced March) لم يسقط فيها رجل أو ولد. وكانت تلك الكتيبة تنتظر خلف الخطوط عندما قامت بعض القوات المتقدمة في التقهقر وهي واقعة تحت نيران كثيفة أتية من جهة العدو. عند ذلك تقدم جنود الكتيبة الحادية عشر وراياتها الملونة ترفرف عاليا، والفرقة الموسيقية العسكرية تعزف أناشيدها الحماسية. تحرك رجال الكتيبة نحو الخط الأمامي واندفعوا نحو زريبة (معسكر) الدراويش وغيروا مجرى المعركة تماما، رغم خسارتهم لكثير من الجند. وكمكافأة على ذلك النصر، الذي أبدوا فيه شجاعة منقطعة النظير، منحهم لورد قرينفيل وسير كتشنر طبلين جانبيين / مطوقين (side drums) من نوع خاص، ظل عازفا الطبل في الفرقة يضعانها بكل فخر على جانبيهما في مقدمة الفرقة. ومنحهم كتشنر نيشاين خاصة، وسمح للكتيبة بارتداء "الريشة الحمراء Red Hackle" كدليل رمزي على بطولتهم وشجاعتهم، يرتديها الضباط ضمن زيهم

الرسمي اليومي، بينما يضعها أصحاب الرتب الأخرى في المناسبات الخاصة والعروض والاستعراضات العسكرية.

ومرة أخرى، في معركة "أم درمان"، حين بذل 10,000 من مقاتلي الدراويش بكل شجاعة أرواحهم، أظهر رجال تلك الكتيبة تميزا خاصا جعل القيادة تختارهم ليمثلوا القوات السودانية في القداس التذكاري الذي أقيم للجنرال غردون أمام بقايا مبنى القصر بالخرطوم في الثالث من سبتمبر 1898 م. ومن بعد ذلك ظلت الفرقة الموسيقية العسكرية لتلك الكتيبة تعزف دوما قبل بدء مسيرتها بيتا من تريلة Abide with me التي كانت أثيرة عند غردون. وفي عام 1924 تم حل الفرقة، غير أن ذكراها ظلت باقية. ولعل من أشتى علبة من "سجائر عبد الله" سيلاحظ على غلافها صورة لجندي مصري وآخر سوداني. وكان ذلك السوداني يعمل رقيباً (شاويشا) في الكتيبة السودانية الحادية عشر (لرؤية الصورة يمكن الضغط على الرابط:

http://www.cigarettespedia.com/index.php/Abdulla_Cigarettes_Specialists_-_03)

المترجم

著者

ظلت القوات الحكومية تقاتل الدراويش حتى بعد مرور أربعة عشر شهرا عقب معركة أم درمان. وفي نهاية تلك الشهور هزمت تلك القوات بقيادة اللواء وينجت الخليفة عبد الله وقتلته في معركة

(جديد) في 24/11/1899م. ولم تحدث بعد ذلك حالات مقاومة منظمة، ولكن وقعت، ولسنين عديدة، حالات تمرد وقتال في مناطق مختلفة من السودان. غير أن الحكومة بسطت سيطرتها تدريجيا على مقاليد الأمور، وأشاعت الأمن في البلاد. ولا بد أن نذكر أن كثيرا من رجال القبائل كانوا قد استولوا على بنادق من الأتراك والمصريين، ولم يكن من السهل عليهم ترك عاداتهم القديمة المحبة للقتال. لم يكن من الميسور قط ضبط الأمن في أوساط أناس يغلب على طبعهم العنف والشغب والتمرد وظلوا لأجيال يتحاربون فيما بينهم، ويعتمدون على السيف والحربة لنيل ما يريدونه. وظلت الحكومة تبعث بأعجل ما تيسر لها بدوريات للحراسة للمناطق التي يصل لمسامعها أنها غير مستقرة، أو أن شغبا سيحدث فيها، حتى لا تتطور الأحداث إلى عصيان عام. غير أنه من الملاحظ أنه ما أن تُنهي تلك المعارك، حتى يقوم من كانوا يحاربوننا بالانضمام للقوات الحكومية، ويقاثلون من أجلنا في المستقبل بنفس الشجاعة التي أظهروها عندما حاربونا في الماضي.

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى لم يكن للبريطانيين في السودان من نصراء أشد إخلاصا من أبناء الخليفة عبد الله، الذي دأب دَوْلَتُهُ على يد كَتَشَنَر، وقتلته قوات وينجت. لا عجب إن كنا نكن كل الاحترام للسودانيين لسماحتهم ورحابة صدرهم، ونعجب بشجاعتهم.

لقد كانت ظروف العمل في الخدمة العسكرية شاقة وعسيرة حتى على الذين اعتادوا على العمل تحت الشمس والحر، خاصة وأنه كان

السودانيون الممتثلون

مفروضاً على الجنود السير على الأقدام بمجرد إشعارهم بذلك، وأن يرتحلوا من مكان لآخر بسرعة، حاملين معهم كل ما يحتاجونه. وأذكر حادثة وقعت في عام 1911م حينما ظهر مذب هالي، وشاع بين الناس يومها أن تلك علامة على انتهاء أيام الحكم البريطاني في البلاد. وفرح بذلك بعض رجال القبائل في منطقة تجاور المنطقة التي كنت أحكمها فرحاً غامراً، وأحدثوا بعض الشغب. وأرسل إليّ مدير المديرية طلباً عاجلاً لأبعث للمنطقة المهتاجة بقوات لحفظ الأمن، فقامت خلال 72 ساعة بإرسال سرية جنود لإنقاذ الموقف. وللوصول لتلك المنطقة كان على رجال تلك السرية أن يقطعوا مسافة 120 ميلاً سيرا على الأقدام على أرض مشبعة بالماء، وأن يعبروا نهرين كبيرين سباحةً.

كان ذلك مثالا لحادثة واحدة من بين كثير من الحوادث في تلك الأيام الباكرة بالسودان الحديث، عندما كنا نتفادى وقوع الكوارث بالإسراع في إيصال العون العسكري. وكانت الحاميات وقتها قليلة ومتباعدة. غير أن مجرد إدراك من يودون إثارة الشغب بأن هنالك قوات مسلحة موجودة، وستصل لتخمد شغبهم - رغم بعدها عنهم - كان كفيلاً بتثبيط همة وردع هؤلاء. ومع جنودنا قليلي العدد في هذا البلد الواسع المترامي الأطراف، كانت هنالك شرطة مدنية، مؤلفة من أعداد قليلة من الرجال، أسندت إليهم مهمة حفظ الأمن، وكبح تجارة الرقيق، وإخماد حركات التمرد والعصيان.

وتزخر سجلات ووثائق حكومة السودان بتفاصيل المعارك التي دارت بين النوير والدينكا والبيير (الذين يقطنون على نهر فيفينو

السودانيون الممتثلون

شرق بور. المترجم) والنوبة وقبائل أخرى. ويأسف الكثيرون منا على أنه لم ينشر الكثير عن تلك المعارك القبلية، رغم أنها تقف دليلا ساطعا على صعوبة المواقف التي كان على البريطانيين مواجهتها في أيام حكمهم الباكرة. وكثيرا ما اشعر بأن أجيال الشباب السودانيين لا يدركون مقدار الثمن الذي بذل في الماضي حتى ينعموا الآن بالأمن والرفاهية.



الجزء الثاني قلاقل في دارفور

قلاقل في دارفور

وأقول أيضاً إنه لا ضَيْرَ من أن تسقط، فالعارك تُخسر بنفس
الروح التي تُكسبها

والت ويتمان. أغنية نفسي.

I also say it is good to fall, battles are lost in the same spirit in which
they are won.

Walt Whitman, Song of Myself



انطلقت في نهاية أغسطس عام 1921م شائعات غامضة في
أوساط رجال القبائل حول مدينة نيالا بقرب حدوث قلاقل في
المنطقة. وفي الخامس من سبتمبر وصلت لأسماع السيد / تنينت
ماكنيل باشمفتش المديرية أنباء عن تزعم الفكي عبد الله ود
السحيني لقوة كانت تنوي مهاجمة مدينة نيالا، التي هي من
أقصى النقاط الإدارية في السودان، إذ تبعد نحو 120 ميلا جنوب
الفاشر (عاصمة مديرية دارفور)، ويفصلها عن الأبيض (آخر مدينة
تصلها السكة حديد في غرب البلاد) منطقة شبه صحراوية طولها
396 ميلا. وتبعد الأبيض عن الخرطوم مسافة قدرها 428 ميلا.
وكانت دارفور هي آخر المديریات التي ضمت لدولة الحكم
الثنائي (البريطاني - المصري)، إذ أن الحكم الجديد كان قد سمح
لعلي دينار بحكم دارفور مقابل دفعه لجزية رمزية عقب تسنمه

لسدة الحكم في عام 1898م. إلا أن علي دينار استجاب في عام 1916م لإغراءات ومداهنات الألمان والأتراك وتخلّى عن حلفه مع الحكم الثنائي، والذي لم يتردد في الإطاحة بحكمه في حملة قصيرة لكنها ناجزة، ضُمت بعدها دارفور تحت سيطرة دولة الحكم الثنائي بصورة تدريجية. وأثارت تلك السيطرة (رغم أنها كانت طفيفة حتما بسبب الظروف القائمة آنذاك) بعض المشاعر العدائية عند كثير من الدارفوريين الذين ساءهم أن تحرمهم الحكومة من فرص سابقة كانوا يزدادون بسببها ثراءً على حساب جيرانهم. وكان يقطن في نبالا أناس من أعراق مختلفة، لا يجمع بينهم غير كرمهم لأي سلطة تفرض عليهم من قبل حكومة مسيحية. ومما زاد الطين بلة وصعب من مهمة الحفاظ على الأمن والنظام هو نقص عدد الموظفين الحكوميين في كل المجالات بنبالا. فقد كان من المتعذر على المفتش البريطاني زيارة كل المناطق البعيدة الواقعة تحت سلطته بالتواتر المطلوب، وكان غيابه عن تلك المناطق البعيدة - كما تبين لاحقاً - يشجع البعض، بصورة متزايدة، على القيام بانتهاكات وفضائح. وكان بعض الشيوخ والعمد ممن أوكلت إليهم مهمة تقدير وجمع الضرائب والعوائد يأكلون أموال المواطنين بالباطل. وكان كثير منهم يحدو حدو من سبقهم من المصريين والأتراك في استخدام وسائل غير إنسانية في جمع الضرائب، بل وقاموا بتقييد وضرب بعض زعماء القبائل البارزين وجلدهم بالسياط علناً من أجل ابتزاز مزيداً من الأموال منهم. وكما كان الحال في عهد التركية، كان بعضاً من هؤلاء يستغلون بعض نساء القرى التي كانوا يجمعون منها الضرائب. وبهذا تنامت المظالم الاقتصادية والسياسية عند الأهالي واختلطت

السودانيون المستأمنون

بمشاعر التعصب الديني فخلقت مزيجا خطيرا شديدا الانفجار. وعندما سمع السيد / تنينت ماكنيل باشمفتش المديرية بأنباء تلك القلاقل لم يجد أمامه سوى خياران أحلاها مر. فقد كان يمكن له أن يفترض أن تلك الأنباء كاذبة أو مبالغ فيها، وألا يفعل شيئا البتة وينتظر إلى أن تتضح صورة الموقف ويحصل على مزيد من المعلومات. غير أن ذلك التأخير قد يجعل من فعل أي شيء لاحقا أمراً مستحيلا. وكان يمكن أيضا للباشمفتش أن يرسل طلبا لتعزيزات عسكرية، بيد أن ذلك كان سيهز الثقة في سلطاته الإدارية إن ثبت خطأ تلك الأنباء عن تمرد ذلك الفكي، لا سيما وأن الثقة في النظام الإداري كانت تركز على هيبة ومكانة المسئول البريطاني المنعزل الوحيد الذي تسنده قوة غامضة على بعد أميال وأميال. قرر السيد / تنينت ماكنيل ألا يتسرع في طلب مدد عسكري حتى يتيقن من عدم إمكانية العثور على حل آخر ممكن. كان يدرك أن الفكيا (جمع فكي) ظلوا دوما مصدر كل القلاقل وحالات التمرد في السودان، بيد أن كثيرا من تلك الحالات لم تكن تسبب غير إزعاج مؤقت للسلطات ليس له من كبير تأثير أو خطر. فقد كانت طلقة نارية واحدة من بندقية شرطي تصيب اللحم كفيلة بأن تثبت بأن طلقات الحكومة النارية لن تستحيل ماء كما كان الفكي يعد أتباعه، وكانت تلك الطلقة النارية تنجح دوما في تفريق الجموع. هل سيصدق هذا السيناريو في هذه المرة يا ترى؟ صعب على السيد / تنينت ماكنيل أن يبت في الأمر، فقد كان رجلا مريضا وفي حاجة عاجلة لاستراحة طويلة، وكان مسئولاً في منطقة تبعد حوالي مائة ميل من أقرب مكان به رجل أبيض، وبذا لم تكن لديه الفرصة لمشاورة أي إنسان من بني

جلدته. ولعل الرجل قد أعتقد بأن مرضه قد يؤثر سلبا على مقدرته على الحكم على الأشياء ويضخم له من المشكلة التي تجابهه. ولم يتضح إلا بعد ذلك التاريخ بكثير أن الفكي عبد الله ود السحيني كان مثالا نموذجيا للقائد المتعصب دينيا والذي كان قد أفلح في إقناع أعداد كبيرة من التابع الجهلاء بأنه مجدد للدين، وبامتلاكه لقدرات هائلة معجزة. وكان بعضا من مريديه يزعمون أنهم قد سمعوا بأذانهم طبول الجنة تدق فوق رأسه، وبأن ثمانية من النسور البيضاء تهبط من السماء وتحرسه من الأمام ومن الخلف حين يقوم بفرش فروته على الأرض، وبأنه إن غرز حربته العريضة في أرض ماء، فلن يكون بمقدور كائن من كان أن ينزعها عنها، وبأن له القدرة على تحويل طلقات رصاص الحكومة الناري إلى ماء لا يضر. وكان ذلك الفكي قد قام بعمل استعراض لبعض "معجزاته" أمام بعض أتباعه بعد أن استبدل سرا الرصاص الذي كان محشوا في طلقة نارية وملاها بالماء، وأطلق الرصاص فسال الماء أمام أعين المريدين فازدادوا به إيمانا!

وسمع السيد / تنينت ماكنيل بقرب حدوث الهجوم على نياالا فأرسل العيون لمحاولة معرفة تحركات الفكي المتمرد ونواياه. وأثبتت الأيام لاحقا بأن أولئك البصاصين لم يكونوا مخلصين أو مجيدين في عملهم. وفي يوم 17 سبتمبر قرر السيد / تنينت ماكنيل أن الفكي عبد الله عاقد العزم على الهجوم على نياالا فأرسل رسولا إلى الفاشر يحمله رسالة مفادها أن هنالك رجلا اسمه عبد الله قد أعلن الجهاد ضد الحكومة، وأنه يزعم أنه "النبي عيسى"، وأن له 200 من الأتباع، وأكد لمدير المديرية أنه بصدد القبض على ذلك الفكي المتمرد. وتبين فيما بعد أن السيد / تنينت ماكنيل كان يجهل في الواقع العدد الحقيقي لأتباع ذلك النبي المزعوم.

السودانيون المستسلمون

وبعد ثلاثة أيام على بعثه لتلك الرسالة جاءه من يبلغه بأن نيالا ستهاجم في تلك الليلة فأصدر أوامره لمن تحته من رجال الشرطة وحرس السجون (ولم يكن عددهم يزيد على الأربعين رجلا) بالاستعداد، وصرف للموظفين السبعة العاملين في إدارة محطته (مثل القاضي وعامل البناء والحلاق وغيرهم من العاملين) بنادق صغيرة وذخيرة إضافية. وقام أيضا بتزويد التجار ببنادق عتيقة كانت قد غُنمت من جيش علي دينار في عام 1916م وذلك لحماية ممتلكاتهم في سوق المدينة. وبحلول الساعة الثامنة من ليل ذلك اليوم كان الجميع في أقصى حالات الحذر والترقب والاستعداد لهجوم ذلك الفكي المرتقب. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، ومرت تلك الليلة بسلام. وفي صبيحة اليوم التالي انشغل الجميع بحفر خندق حول المدينة لمنع دخول المتمردين القادمين على ظهور الخيل، وقاموا أيضا بوضع أسلاك شائكة كثيفة على بعد ثلاثين ياردة من مكاتب الحكومة حماية وتأمينا لها، إلا أنه سرعان ما تكشف ضعف تلك التحصينات عندما قام حصان شرطة هائج بالاندفاع نحو السلك الشائك واختراقه لحظة الانتهاء من نصبه! وظل الجميع في حالة من القلق والتوتر والتوجس لأربعة أيام بلياليها وهم ينتظرون الهجوم المحتمل إلى أن قدم أحد بصاصي الحكومة وجواسيسها يوم 24 سبتمبر وأعلن أن الفكي عبد الله وجنده على بعد مسيرة يوم ونصف من نيالا، أي أنهم سيهاجمون نيالا في ليل السادس والعشرين.

وهنا دعنا نترك أمر تلك الحامية الصغيرة المؤلفة من نحو خمسين رجلا تنتظر هجوما كاسحا من جيش قدره بعضهم من فرط القلق والتخوف والرعب بعشرة آلاف مقاتل متمرد، ولنذهب لمعرفة ما

حدث للرسول الذين بعث بهم السيد / تنينت ماكنيل إلى الفاشر لإبلاغ المسئولين هنالك بأنباء ذلك الغزو المحتمل.



في 17 سبتمبر (سنة 1921 م. المترجم) غادر المندوب الأول الذي بعثه مفتش نيالا إلى الفاشر مدينته حاملا أنباء التمرد، وقطع المسافة بين نيالا والفاشر والبالغة 120 ميلا في المدة المعتادة وهي خمسة أيام. وعلى الرغم من أن السيد ماكنيل مفتش نيالا لم يطلب عوناً عسكرياً، إلا أن السيد نكولوس نائب مدير مديرية دارفور أحس بأن الأخبار الواردة من نيالا خطيرة بما فيه الكفاية وأن عليه إرسال تعزيزات عسكرية لنيالا. وعلى الفور أمر بأن تغادر الفاشر قافلة مكونة من أربعة وستين جندياً من فيلق عرب الغرب (Western Arab Corps) عند الساعة الثالثة من صباح يوم 23 سبتمبر، وأعطيت لها أوامر صارمة بأن تكون في نيالا في أو قبل يوم 28 سبتمبر. وتصادف أن كان الضابطان البريطانيان الوحيدان في الفاشر مريضين فتولى القيادة ضابط سوداني هو النقيب بلال أفندي رزق، في رفقة ضابط سوداني آخر هو ملازم ثاني سعد أفندي عمر كنائب له.

وفي غضون الأيام القليلة التالية بعث السيد ماكنيل من نيالا بخمس رسائل إضافية وصلت إحداها للفاشر في يومين فقط. وكان واضحاً أن السيد ماكنيل كان في حالة كرب شديد وخطر عظيم. فقد جاء في رسالته ما يلي: "لقد حصنت مباني المركز ونصبت أسلاكاً شائكة حولها. وإلى الآن لم أتبين حقيقة الفكي السحيني أو أتلقى أي معلومات عنه. يبدو الأمر غريباً الآن، وأخشى أن تكون هنالك مؤامرة شاملة، وأن الأهالي بالمدينة والذين يدعون أنهم سيحاربون بكل ما

لديهم من قوة على علم مسبق بهذه المؤامرة ... لدي الآن خطاب بعث به إلى الناظر أبو الحمير مع مندوبين يفيد بأن لهذا الفكي عدد كبير من الأتباع، وسمعت من المندوبين أن للرجل نحو ثمانمائة أو تسعمائة من الجنود. ولدي شعور عميق بأن هؤلاء المندوبين من الخونة، بيد أنني أصدق تقديرهما لعدد أتباع الفكي. حسنٌ... إن كان عدد هؤلاء كما زعم هذان الرسولان فسوف تكون أمامنا معركة حامية الوطيس. إن سمعة الدارفوريين أمام نيران البنادق ليست حسنة، وسنذيقهم إياها نارا لهبا. وليس أمامهم من سبيل غير إضرار أسقف بيوت المركز، ولكننا سنصمد حتى النهاية... آسف جدا لأنني أشعر الآن بالاكئاب، ولكن يجب أن لا تقلقوا علينا، وأن تدركوا أن كل فرد منا هنا سيفعل أقصى ما في وسعه.... وإن بعثتم لنا بتعزيزات فستجري الأمور على ما يرام.“ وبدأت فرقة المشاة المحمولة سيرها ببطء نسبي، وقبل أن تقطع مسافة طويلة قابلت أحد رسل السيد ماكنيل وهو يحمل للمسؤولين في الفاشر رسالة مكتوبة باللغة الإنجليزية لم يستطع أحد قراءة كلمة واحدة منها. ولكن خمن النقيب بلال أفندي رزق، وبعد أن رأى بعض الكلمات مكتوبة بالقلم الأحمر على ظرف الخطاب، أن الأمر جد خطير فجد في السير. وعند منتصف الليل، وبعد أن كان الجنود قد ساروا ثمانى ساعات، توقفوا لأخذ استراحة قصيرة، ولكن سرعان ما جاءهم مندوب يحمل رسالة إلى النقيب بلال أفندي رزق تنبئه بأن الحالة في نيالا حرجة جدا، وأن عليه أن يصلها ليلة الأحد أو قبلها. وهب الجنود من فورهم عقب سماعهم لفحوى تلك الرسالة لمواصلة مسيرتهم القاصدة نيالا دون توقف ولم يضيعوا دقيقة واحدة إلا

لتناول لقيمات، ولإطعام خيولهم وسقياها. وفي العاشرة من مساء يوم السبت وصلت فرقة الجنود إلى منواشي وحينها لم تعد البغال التي كانت تحمل المؤن قادرة على مواصلة السير، ولم يكن هنالك من بد من إنزال ما عليها من أثقال، ووضعت على قليل من تلك البغال الذخيرة وملابس الضباط. وواصل بعد ذلك التجند مسيرتهم وهم يرددون الأهازيج الحماسية في روح معنوية عالية وفي شوق عارم لخوض المعركة المنتظرة. وعند الثالثة صباحا من يوم الأحد لاحت لهم من بعيد معالم نبالا، والتي وصلوها بعد 48 ساعة من تحركهم من الفاشر، ودون أي خسارة في الرجال أو الخيول. وفي الفاشر، وبعد مغادرة تلك الفرقة لها بساعات قليلة آب الرائد شون (وهو من الفيلق البيطري الملكي) إلى مطعم الضباط بعد يوم طويل قضاه في صيد البقر الوحشي. وعندما سمع بأنباء القلاقل في نبالا تطوع من فوره للذهاب لنبالا، حيث أنه كان قد وعد زميلا له بزيارة السيد ماكنيل في نبالا في أقرب فرصة تتاح له. وكان الرائد شون يدرك مقدار الأخطار التي قد يتعرض لها في نبالا، بيد أنه لم يلق لها بالا وقام بتوديع الرقيب الذي يعمل معه وهو يقول: "من الممكن أن لا أعود ثانية... فلا تبتئس!" وبدأ الرائد شون رحلته في رفقة رجل شرطة وخادمين عند منتصف الليل، وقطع في اثنين وعشرين ساعة مسافة قدرها اثنين وسبعين ميلا قبل أن تنهار الجمال التي كانت تحمل الأمتعة. عندها أركب شون خادميه على جمل واحد، ومضى مواصلا الرحلة الطويلة إلى أن انهارت قوى حصان رجل الشرطة الذي كان يرافقه، وبدأ حصانه هو في العرج. لم يثنه كل ذلك فمضى في سيره مشيا

السودانيون الممتثلون

بالأقدام تحت حر قانظ حتى وصل نيالا قبيل الساعة الثامنة من صباح يوم الاثنين 26 سبتمبر بعد رحلة عسيرة استمرت دون انقطاع ستين ساعة كاملة. دلف إلى المدينة من الناحية الشمالية الشرقية فوجدها مهجورة خاوية على عروشها، إلا أنه وجد على الأرض بعض قصاصات من أوراق مكتوب عليها "لا تخافوا... هذه التعويذة (البخرات) ستحيل رصاص الحكومة إلى ماء" مما أكد له أن العدو كان قد حل بهذه المنطقة. سار شون نحو مبنى المركز حيث وجد السيد ماكنيل، وأفراد فرقة المشاة المحمولة ورجال الشرطة وبعض الكتبة والتجار، وكلهم في حالة من اليقظة والحذر والاستعداد لصد الهجوم المرتقب.



تقع نيالا على الخط الذي يفصل شمال السودان القاحل عن جنوبه الوافر الخضرة. وتبعد تربتها الرملية الحصبائية امتدادا للظروف المناخية التي سادت المنطقة، إلا أن وجود أشجار الأكاشيا الصغيرة ومجموعات أشجار الدوم والتبلدي الضخمة تبين أن المياه الجوفية ليست غُوراً تحت الأرض، وعادة ما تهطل في فصل الصيف أمطار تكفي لجني محصول وافر من الذرة والدخن والسّمسم يسد حاجة سكان لا يقومون بكثير من الأنشطة البدنية. وعلى بعد مائة وألف ياردة إلى الجنوب من مبنى المركز يوجد خور لا تجري فيه المياه إلا عقب هطول أمطار غزيرة، بينما تحيط بالمكان من جهتي الغرب والجنوب أشجار اللعوت الكثيفة. وأما من جهة الشرق فتوجد مساحة خالية مفتوحة ليس فيها غير بعض قطاطي الأهالي وشجرة تبلدي ضخمة (ستبين لاحقا أهميتها في المعركة التي

دارت بالمكان). وإلى الشمال يقع السوق، والذي بعث له ملازم ثاني سعد أفندي عمر مع خمسة عشر من الرجال من أفراد فرقة المشاة المحمولة. قد يبدو للوهلة الأولى أن تشتيت قوة صغيرة كهذه ليس من الحكمة في شيء، ولكن - وكما أثبتت الأحداث لاحقاً - فقد أنقذ ذلك التحرك الموقف في ذلك اليوم. ولم تكن لنيالا في أيام التمرد تلك أي نوع من الدفاعات، إذ لم تكن في أي مبنى فيها حلقات تحصين، وكانت أسقفها من القش اليابس والذي يسهل اضرام النار فيه. ولا يوجد في السودان قاطبة إلا فيما ندر أي مبنى يمكن أن نطلق عليه بحق اسم "قلعة"، وحتى عند وجود هذه "القلعة" فهي في حقيقة الأمر لا تعدو أن تكون زريبة من نبات شوكي يحيط بمعسكر حربي. وكانت سياسة الحكومة تعتمد على الدخول المسالم (الناغم) لضابط أو موظف مدني يطوف مع رجل أو رجلين من الجيش أو الشرطة. ولم تكن القوة العسكرية تستخدم إلا عندما تثور قبيلة جامحة (wild) وتتحدى السلطات أو تغير على جيرانها وتنهب أبقارها وعبيدها كما كان يفعل كثيرا منهم في الأيام الخوالي. كانت نيالا مدينة تصعب السيطرة عليها، إذ لم يكن فيها ما يعرف عند العسكريين بـ "ساحة رماية field of fire". فعند الخور في جهة الجنوب يمكن لجند العدو أن يحتشدوا دون أن نراهم، ولا يمكن لنا رؤيتهم وهم على بعد سبعمائة ياردة إلا بعد أن يعبروا بسلام التلال الرملية. ولا يمكن لمن وضعناهم من جنود الاستطلاع على سقف السجن أن يعلموا شيئا عن تحركات مقاتلي العدو إلا بعد أن يكونوا على بعد أربعمائة ياردة فقط منا. وبعد عشرين دقيقة من وصول الرائد شون ثار النقع وغطت موجة عاتية من الغبار المكان معلنة عن بدء المعركة المنتظرة،

السودانيون المستسلمون

وتعالت صيحات الدراويش وطبولهم وهم يرددون: "الدين منصور ... منصور الدين...نجاهد في سبيل الله"، ويندفعون للقاء جنود الحكومة. وكان ملازم ثاني سعد أفندي عمر مع خمسة عشر من جنوده يحرسون منطقة السوق في شمال شرق المدينة، بينما تمركز في جهة الغرب نحو ثلاثمائة وأربعمئة جندي من "قوات صديقة" كانوا (وباستثناء قوات سلطان كبكبيه) لا يعتمد عليهم. وكان السيد ماكنيل قد صرف لهؤلاء الجند شارات حمراء ليميزهم عن قوات الفكي المهاجمة، إلا أن معظمهم أطلق ساقيه للريح لحظة المعركة، بينما نزع آخرون شاراتهم الحمراء وانضموا للمتمردين. وفي مبنى المركز نفسه بقي السيد ماكنيل والرائد شون مع أربعين من المدنيين وحرس السجون بقيادة الملازم أول حسن محمد الزين مسلحين بالبنادق الصغيرة، وخمسين من رجال فيلق عرب الغرب بقيادة النقيب بلال أفندي رزق. وكان المتمردون يحملون الحراب والسيوف العريضة ويتقدمون على ثلاثة محاور تحت رايات تسع نُسج أو كُتب على كل منها آيات قرآنية، بينما أتى الفكي عبد الله السحيني مع مائتين إلى ثلاثمائة من الخيالة وتقدموا شرقاً حتى يقطعوا الطريق على كل من يضطر للانسحاب والتراجع للفاشر. وتقدم بعض المتمردين شمالاً نحو قطاطي الأهالي فأضرموا فيها النيران. وفي هذه العملية فقد المتمردون المئات من رجالهم، وكانت خسائرهم ستكون أفدح لولا خشية ملازم ثاني سعد أفندي عمر من أن تصيب نيرانه بالخطأ من هم بالمركز. كذلك أقبح سلطان كبكبيه في صد المعتدين من جهة الغرب. ولكن كانت الكثرة هي الغالبة فتدفق المتمردون عبر الأسلاك الشائكة واستولوا في أقل من عشرة دقائق على

المركز، وقتل في ذلك الهجوم الرائد شون وثلة من رجال فيلق عرب الغرب. وقتل كذلك السيد ماكنيل وهو يحاول التسلل للإسطنبول مع بعض رجاله من أجل الانسحاب ومعاودة الكرة مع العدو في يوم آخر. وعند الساعة التاسعة إلا ربعاً صباحاً كان الموقف كالتالي: كان نحو خمسين من الدراويش يعيثون فساداً في المركز ويسلبون ويحرقون مباني الحكومة، (! المترجم) وكانت قطاطي الأهالي تحترق، بينما تمركز الفكي عبد الله تحت شجرة التبليدي الضخمة في شرق المدينة. وبقي ملازم ثاني سعد أفندي عمر في منطقة السوق مع رجاله الخمسة عشر (والذين لم يهاجمهم المتمردون) دون ذخيرة بعد أن استنفدت بالكامل. وكان بقاؤهم في تلك المنطقة يعني الموت المحقق فقرر الرجل أن يغامر بمحاولة استعادة مبنى المركز، والذي كان جزء منه يحترق ربما بسبب نيران كان حراس السجن قد أشعلوها لطبخ طعامهم وذلك قبيل هجوم المتمردين. وهكذا انتهى الفصل الأول من معركة نيالا.



وعند تقدم الملازم ثاني سعد أفندي عمر نحو المركز فر المتمردون وهم يسابقون الريح محاولين النجاة من زخات طلقات البنادق التي كان يقذفهم بها رجال الشرطة وحراس السجن (الذين كان بعضهم مصاباً بجراح خطيرة). واتخذ النقيب بلال رزق والملازم ثاني سعد أفندي عمر وجندهما (الذين بلغ عددهم الآن ستة وأربعين رجلاً) وعدد آخر من الموظفين موقفاً دفاعياً في جهة الشرق على بعد مائة ياردة من مباني الحكومة، بينما كانت طبول نقارة الفكي السحيني تدق منادية جنده للتجمع حوله تحت شجرة التبليدي. وصدم الملازم

السودانيون المستأمنون

ثاني سعد أفندي عمر عند استرداده للمركز عندما وجد أن ما كان عند فيلقه من الذخيرة قد أشرف على النفاد، بيد أنه سر أيما سرور عندما أخبره ابن لأحد الكتبة أن بالمخزن نحو أحد عشر ألفا من الطلقات النارية. وساد الصمت مسرح المعركة لدقائق معدودة، ولم يكن الملازم ثاني سعد أفندي عمر يريد أن يتيح للفكي السحيني ودراويشه فرصة إعادة تنظيم قواتهم ففتح عليهم نيرانا كثيفة لاستفزازهم كي يهاجموا قواته. وبالفعل فعلوا ما أراد لهم فعله، وكانت قوة نيرانهم بسبب عددهم الضخم كبيرة جدا. وبدأت الآن أكثر حوادث تلك المعركة بطولية، إذ شاركت زوجات رجال الشرطة وحراس السجن الرجال في القتال. ومع أصوات الزغاريد العالية الحادة كن يقاتلن ويحثن الرجال على الصمود، ويجلبن الذخيرة والماء من حوض كان على بعد خمسين ياردة جنوب سور الأسلاك الشائكة المحيطة بالمركز. ولم يحفظ لنا التاريخ غير أسماء قليل من هؤلاء البطلات (بطلات من منظور الكاتب بالطبع. المترجم) بكل، وهن: حمدة زريقة ومريم أم ديرا. وفي تلك المعركة استولت مريم على صندوق للذخيرة وحاولت فتحه برميته على الأرض مررا، إلى أن عثرت على فأس حطمت به الصندوق. وفي قصة أخرى من قصص بطولات النساء قامت حمدة زريقة بمساعدة رجل اسمه زيتون كان يحرس نساء مدينته بسيف وحيد. جمعت تلك المرأة عددا كبيرا من الحراب، وظلت تقدم للرجل تلك الحراب واحدة بعد أخرى ليقذفها في وجوه المهاجمين. وكذلك أبدت شجاعة فائقة عندما تصدت لمن سرق متاع سيدها وناقته وحماره، وجرت خلفه وأفلحت في إجباره على التخلي عن ما سرقه! ولم تكن هنالك لحظة من لحظات المعركة

لم تشارك فيها النساء بجهد ما. وعندما كانت البنادق تصبح حارة لا يمكن مسها، كن يجلبن الماء في جرار ويقمن بتفريغها علي البنادق حتى تبرد. ورغم صمود المدافعين، فقد ظل المتمردون يتقدمون رغم خسارتهم لأرواح بعض منهم مع كل ياردة يكسبونها، ولكن بدا تقدم المتمردين برغم كثافة النيران المصوبة تجاههم وكأنه تصديق لنبوءة الفكي السحيني بأن رصاص الحكومة سيستحيل ماءً. ومضت المعركة تزداد أواراً، ومع مرور الدقائق والساعات أخذت ذخيرة جند الحكومة في النفاد، حتى حدث فجأة ما قلب موازين القوى، وكانت تلك من اللحظات العابرة والتي كثيراً ما غيرت نتيجة الحرب في كثير من أرجاء العالم عبر تاريخه. شاهد أحد جنود الحكومة الفكي السحيني من على بعد مائة وخمسين ياردة في رفقة حامل الراية وضارب النقارة ونافخ البوق (البروجي). أطلق الجندي طلقتين ناريتين على ضارب النقارة والبروجي فصمتا وإلى الأبد فتزعزع المهاجمون لهزيمة إلا أنهم استفاقوا بعيد تلك الصدمة واستأنفوا الاندفاع. وانتهاز الملازم ثاني سعد أفندي عمر السانحة وأمر أحد رقبائه المجيدين بالتصويب على الفكي السحيني وحصانه، وما هي إلا لحظات وقد هوى الفكي جريحا من على فرسه، الذي أصيب هو الآخر في مقتل. وجَم المهاجمون عندما رأوا رأي العين زعيمهم مجندلا على الأرض، فلم يكن الرجل بالنسبة لهم قائدا عسكريا فحسب، بل كان رجلا ذا قدرات غير طبيعية نجح باستغلالها في غسيل أدمغتهم وإيهامهم بأنه النبي عيسى. وبسقوطه سقطت همهم وانحسر هجومهم. ولم يبق أمام المتمردين إلا أن ينسحبوا ليتبعهم جنود قوات سلطان كبكيا الصديقة، ويمطرونهم زخات من نيران طلقات

الووانيون المستانون

البنادق التي ورثها هؤلاء من رجال الشرطة الذين سقطوا صرعى. وعند العصر وارت قوات الحكومة جثث قتلها الثرى، وظل رجال الحامية المنهكون واقفين وسط أكوام قتل المتمردين وجرحاهم وهم في ضيق من أنينهم وتأوهم، يحرسون المركز ويتربعون هجوما جديدا من المتمردين لم يقع أبدا (لم يذكر المؤلف ما فعل بمن قتل أو جرح من أتباع الفكي السحيني. المترجم.) وكانت فرقة المشاة المحمولة قد سارت في غضون الخمسة وسبعين ساعة الأخيرة نحو عشرين ومائة ميلا، وقضت ليلة كاملة دون نوم أو راحة وهي في أقصى درجات الاستعداد، وخاضت معركتين شرستين، ومع ذلك فقد توجب عليهم مكابدة ليلة أخرى ملؤها السهد والترقب. ولم يكن حال المدنيين الذين كتب عليهم القتال بأحسن حالا من العسكريين، فقد كانوا قد قضوا الأسبوع الماضي كله في كرب وضيق وتحسب. ونفخ جندي حكومي بوقه ليعلم للناس أن المركز ما زال في يد الحامية، وأن النصر كان حليف الحكومة.



لم يعرف العدد الحقيقي لمن قتل من أتباع الفكي السحيني في تلك المعركة، إلا أن حقيقة أن ستة عشر الفا من الطلقات السنارية قد صُبت نيرانها عليهم تكفي للتدليل على أن عدد القتلى لا بد أن يكون كبيرا. ولم يبق من الناجين من أتون تلك المعركة كثير من الرجال ليحكوا تفاصيل ما حدث وكم كان عددهم. غير أن شهادة أحد سجناء سجن نبالا واسمه الغالي تاج الدين (قد ثبت فيما بعد أنه كان قد أتهم زورا وبهتانا بخيانة الأمانة وأدين بها) قد تلقي بعض الضوء على ما حدث في غضون ساعات ذلك الهجوم والذي كان السجنين يراقبه من باب

السجن المصنوع من الأسلاك. ذكر ذلك السجين أن عدد الدراويش الذين هاجموا المركز يساوي تقريباً ضعف عدد أفراد قبيلته عندما يخرجون في استعراض عسكري، مما قد يعني أن عدد المهاجمين كان يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف رجل. ولكن لا ينبغي افتراض أن كل هؤلاء كانوا مشتركين فعلياً في المعركة، فمعلوم أن بعضهم كان قد وضع كقوة احتياطية في الخور. ويعني هذا أيضاً أن نسبة عدد جنود الفكي الحسيني إلى عدد جنود الحكومة ومن معها كان أربعين إلى واحد في الهجوم الأول، وربما ثمانين إلى واحد فيما تلاه من هجوم. لقد انتصرت القوات الحكومية حقاً، إلا أنه كان انتصاراً مأساوياً الكلفة. فقد قتل في المعركة الرائد شون والسيد ماكنيل مع أربعة من الكتبة. وقتل سبعة عشر من فرقة المشاة المحمولة، وكان عدد أفرادها خمسة وستين جندياً. وقتل نصف عدد رجال الشرطة الأربعين. وبالجملة يمكن القول بأن نصف عدد المدافعين قد قتل في تلك المعركة، وكان عدد القتلى يساوي ضعف عدد الجرحى مما يشير إلى ضراوة المعركة وإصرار المحاربين من الجانبين على انتزاع النصر. وتم فيما بعد منح قواد المعركة مثل بلال رزق وحسن محمد الزين نيشان الخدمة الممتازة، بينما نال الضابط سعد عمر وسام "الصليب العسكري"، ومنح الآخرون ما يستحقونه من تكريم نظير إيقافهم لتمرّد كان من الممكن أن يقود لو كتب له النجاح إلى تمرّد واسع الانتشار. وبالفعل كانت قد سرت في بعض مناطق كردفان ودارفور إشاعات عن هزيمة الحكومة شجعت قيام ثلاث حوادث محدودة للتمرّد، إلا أن الحكومة قامت، وبسرعة، بإخماد تلك الحركات في مهدها فلم تقم لها قائمة. لم تنس الحكومة دور النساء اللواتي شاركن في تلك المعركة، فتم منحهن من أبقار كانت الحكومة قد

صادرتها من المتمردين الذين ساهمت أولئك النسوة في دحرهم. وبذا تم تأمين أمر معاشهن في مستقبل الأيام.



من الأحداث الغريبة في تلك الأيام قصة مندوب كان قد أرسل للفاشر فور انتهاء المعركة وحُمِلَ صندوقا مغلقة به قائمة بأسماء من قتلوا أو جرحوا في المعارك خشية أن تصل لعاصمة المديرية أنباء كاذبة وإشاعات مغرضة عن أعداد قتلى وجرحى المعركة. ولكن كان ذلك جهدا ضائعا إذ إن أحد خدم السيد ماكنيل كان قد انسل خلسة من نيالا مع أول إشارة لبدء المعركة وهرب للفاشر التي تبعد مائة وعشرين ميلا يسابق الريح فوصلها في أربعين ساعة فقط، وهناك أشاع أخبارا وأرقامًا كاذبة عن حصاد تلك المعركة. وكانت حكاية ذلك الرجل وجبنه مصدرا للتندر والأغاني السفهية البذيئة، التي عاشت بعد مماته لسنوات وسنوات، وظلت متداولة حتى بعد أن طمر النسيان اسم ذلك الخادم. وظل الناس لعهد طويل يتداولون في جلسات سمرهم المسائية قصص تلك المعركة ويتحدثون عن شجاعة من شاركوا فيها وعن من قاتلوا ببسالة رغم جروحهم النازفة حتى نفدت ذخيرتهم، ويحكون حكاية الغالي تاج الدين، ذلك السجين البريء، والذي جلبت له زوجته سيفًا له مقبض فضي منع به من أراد من المسجونين الهرب والالتحاق بجنود الفكي السحيني، وهو يصيح فيهم: "الدين منصور". وبقي الناس يذكرّون حامد طمبل، ذلك الصبي الغض الذي كان أحد حراس خيول المركز، والذي قتل بمفرده اثني عشر من جنود الأعداء، ولم يفقد حصانا واحدا مما كان يحرسه. أما حارس السجن العريف موسى رحمة فقد أبى بشمم أن تنتزع من فخذة اليمنى، إلا بعد

السودانيون المستقلون

انتهاء القتال، حرباً من النوع الذي يشابه صنارة صيد السمك، تهتك الجسد عند دخولها وعند إخراجها أيضاً. وطلب الرجل من رفيق له أن يكسر رمح الحربة ثم ربط فخذه بلفافة قماش ومضي يزحف على مؤخرته مستنداً على يده اليمنى وساقه اليسرى حتى وصل خط انطلاق النار على بعد ثلاثين ياردة. كانت تلك بعض لمحات لصور من البطولة والبسالة التي سجلتها ذاكرة من شهدوا تلك الموقعة، ولا ريب أن هنالك ما يماثلها أو يفوقها من صور بديعة قُبرت مع من فقدوا أرواحهم وهم يقاومون ذلك التمرد.



طاقت بخاطري ذكرى تلك المعركة وأنا في زيارة لمدينة أبي حمد بمديرية بربر حين طلبت زيارة قبور الجنود السودانيين والبريطانيين الذين قتلوا في المعركة التي دارت في السابع من أغسطس من عام 1897م أثناء حملة النيل. وكما نبه من قبلي السير رينيل روود (شاعر ودبلوماسي وبرلماني بريطاني شهير. المترجم) فقد نبهت أنا أيضاً إلى ضرورة أن تكون زيارتي لتلك القبور في النهار، إذ إنه (وكما يعتقد بعض الأهالي) ما أن يرخي الليل سدوله فإن الجنود السودانيين الأحد والعشرين يقومون على حراسة قبري الضابطين البريطانيين الرائد هـ. م. سيدني والملازم أي. فيتزكلانس المدفونين بقربهم ويطلقون النار على كل من يقترب من المقبرة. وأثنى السير رينيل على أولئك السودانيين ثناءً مؤثراً الشدة ولائهم وإخلاصهم، أو كما قال: «كانوا شديداً الولاء في الموت كما كانوا في الحياة» (ومدحهم الرجل بقصيدة طويلة، أوردها المؤلف كاملة. ولم نر ضرورة في ترجمتها هنا. المترجم)

الجزء الثالث الحربان العالميتان

السودانيون الممتثلون

.

الحربان العالميتان

Unshaken, unseduced, unterrified,
His loyalty he kept, his love, his zeal.
Milton, Paradise Lost

حافظ على ولائه وحبه وحماسه
ثابتة مُطْمَئِنَّة وعصية على الإغواء
ميلتون. الفردوس المفقود



كان قليل فقط من السودانيين يدركون أن بلادهم ليست، ولم تكن في يوم من الأيام، جزءا من الإمبراطورية البريطانية، وكان عدد من يلقي بالا لذلك أقل بالتأكيد. كان أكبر همهم هو العيش بلا خوف، وممارسة شعائر دينهم دون تدخل من أحد، وأن يحتفظوا لأنفسهم بحصاد جهدهم في الزراعة وغيرها بعيدا عن أيدي السُّراق وجامعي الضرائب الظلّمة. وليس بمقدورهم نسيان تلك الأيام التعيسة التي سالت فيها الدماء، وفشا الابتزاز، وكثرت فيها المجاعات. كانوا ممتنين للبريطانيين للرفاهية التي ينعمون بها، والأمن الذي عم حياتهم الآن.

وكان اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام 1914م هو أول إشارة لأكثر مشاعر الولاء والإخلاص والود أثرا تجاه البريطانيين من العرب والسودانيين على حد سواء - وسيغدو الأمر أكثر وضوحا عندما نتذكر أن سلطان تركيا (خليفة المسلمين) كان قد أعلنها حربا مقدسة

ضد المسيحيين. غير أن ذلك الإعلان، وما أعقبه من فيوض الحرب الدعائية لم يترك أثرا على ملايين الحمديين في السودان. فقد انهالت مئات الخطابات والبرقيات على البريطانيين من كل أنحاء السودان، عبر فيها مرسلوها عن تأييدهم وتعاطفهم للبريطانيين، وعرضوا المساعدة وتقديم ما عندهم من مال لصالح المجهود الحربي بالبلاد. أتت تلك الرسائل والبرقيات من الزعماء الدينيين ومن زعماء القبائل والقضاة وأئمة المساجد والمزارعين والتجار والكتبة السودانيين. وتوالت العروض من السودانيين للقتال بالإنابة عن البريطانيين.

كتب أحد سلاطين الجنوبيين المهمين في رسالته: «لقد جلب البريطانيون الحبوب من الهند لإنقاذ السودان من المجاعة. وأنا على استعداد لقتال الأتراك أو أي أشخاص آخرين من أجل الحفاظ على مثل تلك الحكومة، إن هي أرادت مني ذلك. ويشاركني في هذا الموقف كل السكان. وسأتقدمهم بنفسي لكل معركة يطلب مني المشاركة فيها.»

وأرسل زعيم قبيلة كبيرة في كردفان رسالة جاء فيها: «سنقتل إلى آخر رجل فينا في خدمة حكومتنا الحالية. ونحن على استعداد لبذل آخر قرش من أموالنا، وآخر أنفاسنا للدفاع عنها وصد أعداءها، ومعارضة من يعارضها.»

وكان هنالك ما هو أكثر إثارة من تلك الرسائل المؤيدة. فقد أرسل ناظر الهدندوة - أولئك الفيزي ويزي الذي كانوا - وإلى وقت قريب - يقاتلوننا بشراسة، برقية جاء فيها: «أسفنا لسماعنا عن اندلاع الحرب بين إمبراطوريتنا - بريطانيا العظمى - وتركيا. ونحن، بالإنابة عن قبيلتنا، الهدندوة، نود أن نعبر لكم عن ولائنا القوي واخلاصنا الشديد لحكومتنا، وإمبراطوريتنا، بريطانيا العظمى.

السودانيون المستقلون

نحن معها، قلبا وروحا، في كل الأحوال وتحت كل الظروف. وسنضحي - كما يمليه علينا الواجب - بأنفسنا، وكل ما نملك، وكل ما يمكن لنا تقديمه من أجل نصرتها لتظفر بالنصر.

أذكر جيدا أنه في يوم من أيام نوفمبر 1914م كنت أقوم بجولة في البادية على ظهور الجمال ليلا (حتى أحميها من حر النهار)، وفي حوالي الثانية صباحا قابلت ثلثة من كبار شيوخ المنطقة مع بعض أتباعهم. كانوا يحملون حراهم ويرتدون ملابسهم التقليدية الخفيفة المصنوعة من القطن. سلمت عليهم وبقيت معهم لأحدثهم لدقائق. سألتهم إلى أين هم ذاهبون. قال كبيرهم: «لقد سمعنا بأن هنالك حربا في أوروبا، وأن الإنجليز يشاركون فيها. لذا فنحن الآن في طريقنا إليك للمساعدة في معاركك». أحسست بأني سأكون جلفا وخشنا إن رفضت عرضهم الكريم هذا. وزاد من ذلك الشعور أنه من بين المتطوعين بعض زعماء قبيلة البطاحين، الذين أوقعت عليهم قبل شهور قليلة فقط عقوبات قاسية على سرقتهم لأبقار آخرين.

وجُمعت لاحقا كل تلك الرسائل والبرقيات في كتيب صغير، يعد الآن وثيقة ذات قيمة عالية لمن أحتفظ منا به، وتذكار عزيز لأيام خلت.



جاء في مقال لأحمد أبو شوك نشر في بعض المواقع الإسفيرية «في نوفمبر 1914م دعا ونجت باشا علماء الدين البارزين، وزعماء الطرق الصوفية، ووجهاء المجتمع إلى اجتماع بسرايا الحاكم العام، وأوضح لهم أن الحرب لم تكن ضد الإسلام والمسلمين، بل ضد ألمانيا وحلفائها الأتراك الذين يسعون في الأرض فسادا. وفي ذلك

الاجتماع، أعلن الزعماء السودانيون ولاءهم للحكومة البريطانية: «نحن مع الحكومة الحالية قلباً وقالباً، ولاشأن لنا بتركيا التي تبعت مشورة ألمانيا، وأعلنت الحرب بالارتباط معها». وطُبع ذلك الإعلان في منشور، أضحى يُعرف بـ «سُفر الولاء». وإلى جانب ذلك الإعلان انهارت التبرعات النقدية على جمعية الصليب الأحمر (8400 جنيه)، ولصندوق أمير المال (1500 جنيه)، وأُرسل بعض أصحاب الإبل (الجمال) ومُلاكها 1175 جملًا لمساعدة الحملات العسكرية في نقل المؤن والعتاد. وأبدى الزعماء الدينيون والقبليون تأييدهم للحكومة والإمبراطورية البريطانية في حربها ضد الخلافة العثمانية وألمانيا، ثم وقَّعوا على سُفر الولاء الذي نشرته جريدة السودان تايمز في 4 أغسطس/آب 1915، تحت رعاية الحاكم العام والسكرتير الإداري، والشيخ مصطفى المراغي (قاضي القضاة)، والشيخ الطيب هاشم (مفتي السودان)، والشيخ أبو القاسم أحمد هاشم (رئيس لجنة العلماء)، والسيد علي الميرغني، والشريف يوسف الهندي. وسُفر الولاء هو عبارة عن مجموعة من العرائض والتلغرافات والرسائل التي بعثها نفر من الزعماء الدينيين ورجال الإدارة الأهلية، وعلماء السودان إلى مكتب الحاكم العام بالخرطوم، معربين عن ولائهم لحكومة السودان وتأييدهم للإمبراطورية البريطانية في حربها ضد الدولة العثمانية وألمانيا. وجاء في مقدمة هذا السُفر التلغراف الذي بعثه السيد علي الميرغني من كسلا، والذي يُقرأ نصه هكذا:

«كسلا في 12 نوفمبر 1914... عطوفة الحاكم العام... إن الحزن والأسف لِمَلء أفئدتنا لدخول تركيا في حرب ضد بريطانيا العظمى؛ الأمر الذي حصل بلا شك رغم وضد إرادة ورغبة السلطان وعقلاء

السودانيون المعتقلون

دولته، والذي تكذّر منه المسلمون في جهات الأرض الأربع أربح جهات الأرض. ولا ريب أن العالم الإسلامي كله يصبُّ مقتته وسخطه الشديد على الدولة الألمانية الباغية المسبّبة لكل هذه الشرور والمصائب، والمنقادين إليها من رجال حكومة تركيا. إنّ عطف المسلمين على الدولة التركية لا لأنها تركيا، بل لاعتبارات أخرى معروفة، أمّا وقد ألحقت الحكومة التركية نفسها بالدولة الألمانية واتّحدت بها حتى صارت كإحدى حكومات الاتحاد الجرمانى، فلا ريب أنها فاقدة ذاك العطف الثمين الذي لا يُقدّر، وتلك خسارة عظيمة عليها لا تقوم ولا تُعوّض.. هذا وإننا نرفع خالص ولائنا وإخلاصنا العظيمين جدّاً عنّا، وعن الشعب السّودانى كلّهُ لدولة بريطانيا العظمى، تلك الدولة العادلة التي تحترم ديننا، وتهتم بمصالحنا، والتي عمّرت بلادنا بنعم العدل والعمران، والتي يُظَلَّلُ عدلها نحو التسعين مليوناً من إخواننا المسلمين بأنحاء الأرض، والتي هي المُجِبَّة حقّاً للمسلمين والصديقة الحميمة لهم... علي ميرغني».

ووصف ل. ب. جرديني، محرّر جريدة السّودان تايمز، الرسائل والتلغرافات الواردة في سِفَر الولاء بأنها «دليل قاطع على سيادة المبادئ الأساسية للحكم البريطانى... رغم أنّ السّودان أحد أكثر المستعمرات البريطانية حداثة إلا أنه أثبت... من بين الدول القليلة المخلصة والمتفانية في سبيل خدمة أغراض الإمبراطورية».

<https://www.sudaress.com/sudanile/110213>

المترجم



ثم اندلعت الحرب العالمية الثانية بعد مرور نحو ربع قرن من السنوات من ذلك. وفي غضون سنوات تلك الحرب الثانية تدفقت أيضا على البريطانيين رسائل الولاء والإخلاص من كل أرجاء السودان المختلفة. وتطوع الكثيرون دون تردد للمشاركة في حرب ستكسبهم شهرة خالدة لا تشوبها شائبة. وأرسل كل من لا يقدر على القتال بنفسه هدايا في كرم فياض أخرجنا. واستقبل الصليب الأحمر وغيره من المؤسسات الخيرية مبالغ مالية ضخمة. ولم يكتف السيد السير عبد الرحمن المهدي (حامل وسام فارس الإمبراطورية البريطانية، K.B.E. ونيشان فيكتوريا الملكي C.V.O.) بالتبرع بالمال وبكميات كبيرة من القطن، بل استضاف في داره عددا كبيرا من أفراد القوات البريطانية. وتبارى الأغنياء والفقراء في عمليات التبرع والتطوع. فقد تبرعت إحدى قبائل البقارة بمئة وأربعة من أفضل خيولهم لخيالة قوة دفاع السودان. وقاد الميذوب قطعان من أغنامهم عبر شجيرات الصحراء لمسافة 400 من الأميال حتى بلغوا أم درمان لتقديمها هدية إلى البريطانيين. وكان من أكثر المواقف السودانية أثرا على الشاعر هو موقف واحدة من أكثر القبائل تخلفا وأقلها تقبلا للحكم واستخدام النقد، حيث عرضت أن تقرض الحكومة عشرة جنيهات كاملة لمساعدتها في ساعة حاجتها!

ولم تكن الهدايا وعروض المساعدة تلك هي المساهمة الوحيدة للسودانيين في مجهودنا الحربي المشترك. فقد رضوا - عن طيب خاطر - ودون أدنى تذمر أو احتجاج على الاجراءات التي أجرتها

السودانيون المستأمنون

الحكومة للضغط على المصروفات مثل تقنين المواد الاستهلاكية وغيرها من التدابير التقييدية، والتي لاقوا صعوبة في فهم أسبابها، ولم يقدرُوا دوافعها (شملت تلك التدابير تخفيض المرتبات وإيقاف الترقيات وتسريح مئات العمال وغير ذلك، وربما لم يكن صحيحا تماما رضا الناس بتلك الإجراءات، المترجم).

لا ريب أن رابطة الكومنولث البريطاني (بل كل العالم الحر) مدان بدين كبير للسودانيين لولائهم وتعاطفهم وعونهم (لبريطانيا في تلك الحرب).



أعلن (الزعيم الإيطالي) موسوليني في العاشر من يونيو 1940م - أي بعد ستة أيام من إخلاء دينكرك (إحدى المعارك البارزة خلال الحرب العالمية الثانية التي نشبت بين قوات الحلفاء وألمانيا النازية، والتي انسحب فيها ثلث مليون جندي من جنود الحلفاء، المترجم) - الحرب رسميا على بريطانيا العظمى وفرنسا. وأحس موسوليني وهو يرى فرنسا جاثية على ركبتيه، وبريطانيا أشبه بالعاجزة عن الدفاع عن نفسها، وألمانيا وقد أحكمت سيطرتها على غالب دول أوروبا، بأن الفرصة قد لاحت له أخيرا لتحقيق حلمه الذي طال انتظاره بإنشاء إمبراطورية إيطالية كبرى. ورأى أمامه إمبراطورية تمتد من طرابلس في ليبيا إلى أرتيريا والحبشة وأرض الصومال الإيطالية، ويشمل ذلك بالطبع كل من مصر والسودان، وأرضي الصومال الفرنسية والبريطانية، وتلك إمبراطورية تبلغ مساحتها 3,000,000 ميلا مربعا، يقطنها نحو 32,000,000 نسمة، وقد يزيد سكانها بـ 13,000,000 نسمة وتزيد مساحتها بـ 675,000

ميلا مربعا إضافية، إلا إذا طمع حليفه الجشع والأقوى في ضم أوغندا وكينيا وتنجانيقا وزنبار لنفسه.

وبدا أن ثروة أفريقيا في متناول يده: القطن والمنتجات الأخرى مثل الذرة والسمسم والبن وال فول السوداني، وأعداد لا حصر لها من الماشية والغنم والماعز والأبل، إضافة لجوز الهند والأناناس والمانجو والبهارات المختلفة، وكل منتجات المناطق المدارية الرائعة المذاق والرائحة الأخرى.

وبدا أن موسولينى في طريقه بالفعل لتحقيق حلمه القديم والاستيلاء على كل ما ذكرناه. وتحضيرا ليومه ذاك جمع موسولينى في شرق أفريقيا جيشا مكونا من 300,000 من الجنود المسلحين المزودين بوسائل انتقال حديثة، إضافة لأربعمائة مدفع ومائتي طائرة. غير أنه لم تكن كل تلك القوات جاهزة للعمليات الهجومية، إذ أنه كان لزاما عليه الاحتفاظ بقسم كبير منها في الحبشة، والتي كان يناصب أهلها جيشه أشد العداء والكره بسبب ارتكاب تلك القوات لأشد الفظائع وأنكرها (مثل القتل بالغازات السامة وغير ذلك).

وقبل سنوات قليلة أقدمت القوات الإيطالية على الهجوم على أديس أبابا وقتلت من سكانها أكثر من 9000 فردا، وأعدمت إيجازيا عددا كبيرا من أفراد العائلة المالكة في مختلف الأقاليم. وهاجمت الصوامع والأديرة وقتلوا رهبانها رميا بالرصاص دون محاكمة، وقتلت أو نفت كل حبشي تلقى تعليما أوروبيا. وبقي الأحباش الذين كانوا يفتقرون للقوة والقيادة عاجزين - في عداء مكتوم - للقوات الإيطالية الكبيرة العدد، في انتظار يوم يستلون فيه سيف العدالة المنتقمة من غمده. وبلغ العداء للقوات الإيطالية في الحبشة مبلغا

السودانيون المستأمنون

جعلهم يحرصون على عدم تقليل أعداد جنودهم بها خوفاً من حدوث ما لا يحمد عقباه لهم. غير أن مخاوفهم تلك ربما كان مبالغاً فيها. فقد كان الأهالي قد قهروا بعنف ووحشية الانتقام الإيطالي، وساهمت الخلافات العرقية والقبلية في تفريق كلمتهم، فتفرغوا للصراع فيما بينهم. وكان الأحباش قد أصابهم الفزع عندما علموا بسقوط فرنسا (على يد الألمان)، وكانوا يعدونها أكبر قوة عسكرية في العالم قاطبة. غير أن الأمر تغير عندما زودتهم حكومة السودان بالأسلحة والذخائر. وعندما آب الإمبراطور (هيلاسيلاسي. المترجم) لبلاده، بدأ الأحباش في أداء دور فعال في الحرب ضد الإيطاليين. وواجهت «قوة دفاع السودان» الصغيرة (4,500 فرداً) جيوش موسولينى كبيرة العدد والعتاد. وقد سمي جيشنا باسم مناسب لوظيفته ومهامه هو «قوة دفاع السودان». وكان الغرض من إنشاء تلك القوة هو تقوية النظام الداخلى، ولم يكن مهياً للمشاركة في حملات خارجية. لم تكن لتلك القوة أي دبابات أو مدافع، عدا بعض الآثار القديمة التي وضعت أمام قصر الحاكم العام بالخرطوم، وكانت تثير الهلع بين المواطنين عندما تطلق منها طلقات الترحيب في الاحتفال ببعض المناسبات. وقدم سلاح الجو الملكى البريطانى لقوة دفاع السودان سبع طائرات عتيقة (من نوع فينسنت المصنوعة في عام 1928م)، وظلت تلك هي الطائرات الوحيدة في السودان إلى أن أرسلت بريطانيا سربي قاذفات قنابل تم وضعها في قاعدة ببورتسودان لحماية السفن العابرة للممر البحرى صوب الهند والشرق. ووضعت أيضاً حاميات من تلك القوة الصغيرة (4,500 فرداً) في نقاط متعددة لمنع تعديات القبائل المنفلتة القاطنة على الحدود مع الحبشة. وكان بعض رجال

تلك القبائل يعارضون ما قامت به الحكومة من منع للصيد الجائر ولحمولات صيد الرقيق. بينما رأى النوير - وهم قوم يتوقون دوما لخوض المعارك أو لشن حملة نهب لأبقار الآخرين - في الاضطرابات التي عمت المنطقة فرصة سانحة لبدء غزواتهم الخاصة.

وأخفقت الوحدات المكونة لقوة دفاع السودان في أن تخوض، كوحدة منظمة واحدة، معارك في مناطق شاسعة، إذ أن الغرض الأساس من إنشائها منذ البداية كان هو الحفاظ على الأمن الداخلي، وتم بنائها وتطويرها على أساس محلي (بحسب المناطق المختلفة بالبلاد)، وأسندت مهام كل وحدة لمواطني نفس المنطقة الذين اعتادوا على العمل في أرضها وتضاريسها الخاصة. وتولى هؤلاء مؤونة إطعام أنفسهم بأنفسهم في الثكنات. وكانت لديهم القدرة على التحرك عسكريا بسرعة فائقة بعد صدور الأوامر، دون أن يحملوا من الزاد إلا قبضة من ذرة أو نحوها، ولا يحتاجون في تحركهم لأي وسيلة من وسائل المواصلات، التي قد يعيق الحصول عليها تحركهم. غير أن ذلك النظام البسيط واجه لاحقا كثيرا من المصاعب عندما وجدت «قوة دفاع السودان» نفسها ملزمة بالعمل مع بقية الجيوش الإمبريالية الأخرى التي لديها جيش نظامي مرتب وله تقاليد راسخة ومستدامة من قديم في كل ما يتعلق بالترتيبات والنظم العسكرية مثل توزيع المهمات والمؤن وتقنياتها، واتباع سياسيات وخطط وطلبات عسكرية محددة بدقة فائقة. وفي ذلك كتب العميد أي. جي. نوت أحد قادة الألوية البريطانية عام 1944م في مقال بالعدد LVIII لمجلة المهندسين الملكية (Royal Engineers Journal) ما نصه: "لم تستطع الآلية الهندية للتوريدات أن تدرك تماما ما الذي يريده

السودانيون المستأثرون

السودانيون، وقد كانوا يجهلون تماما لغتهم وطرقهم وعاداتهم. لقد قامت "قوات دفاع السودان" على مبدأ "الاكتفاء الذاتي" وامتازت بالمرونة الشديدة في اللوائح والإجراءات، ولم يكن بمقدورها أو رغبتها أن تلتزم بالطرق والوسائل التقليدية للوحدات النظامية وتشكيلاتها. غير أن القادة والعاملين الآخرين في تلك الوحدات، بعد مواجهتهم لمشاكل عديدة من ذلك الجيش الخاص لم يعهدوها من قبل (مثل عدم فهم لغتهم وعاداتهم ووسائلهم وسلوكهم الفردي، وافتقارهم للوائح والنظم، وقيادتهم من قبل هواة ومتحمسين)، أفلحوا رغم كل ذلك في التعامل معهم، والصبر عليهم، وفي حل كل المشاكل معهم في نهاية المطاف.

وذكر ذلك العميد أيضا في مقاله أن تكوين الفيالق المختلفة كان يختلف بحسب البلاد التي تكلف بالعمل على أرضها، ونوع وطبيعة المهمة المسندة إليها. ففي شمال السودان أسندت مهمة حفظ الأمن لقوة الهجانة. وفي غرب السودان وُكِّلَ لأمر لقوات المشاة الراكبة وبعض الهجانة، وأما في الشرق فقد كانت هنالك فرق مشاة مع بعض الجنود الخيالة. وكانت قوة الدفاع في الجنوب تتكون من رجال الاستوائية - كانوا يتحدثون بألسنة متعددة، وكانوا قد نبذوا بالكاد حياتهم الهمجية المتوحشة (savagery)، إلا أنهم مع ذلك كانوا في غاية الشجاعة والاقدام والإخلاص.

وكونت في عام 1934م سرايا مزودة بمدافع رشاشة. وفي اليوم الأول من يونيو 1940م وصلت للسودان مدافع جبلية من نوع هاوتزر قطر الواحد منها 3.7 بوصة، وكانت تلك أول 16 من تلك المدافع تُجلب من الشرق الأوسط. وفي البدء، كانت قوة دفاع

السودان (المكونة من 4,500 رجلا فقط) مسؤولة عن حفظ الأمن في بلد مساحته تقارب مساحة أوروبا. وكان يساعد تلك القوة بعض مئات من رجال الشرطة المدنيين، وثلاث كتائب من القوات البريطانية من أفواج غرب يوركشاير وويرسيسترشير وايسكس، كان عددهم الكلي 2,500 فردا - كانوا كلهم يقيمون في الخرطوم وأتبرا وبورتسودان. وكان يواجههم في الجانب المعادي 100,000 من الجنود الإيطاليين مزودين بمدافع ودبابات وعربات مدرعة، إضافة لنحو 200 طائرة. وكان بمقدور هؤلاء غزو السودان عبر 1200 ميلا من الحدود في كرورة شمالا إلى كسلا والكرمك وغامبيلا، أو عن طريق هضبة بوما في الجنوب. وعلى الرغم من أن كل الظروف كانت ضد قوة دفاع السودان، إلا أنه لم يكن هنالك فرد في السودان يراوده أدنى شك أو تردد في مقدرات تلك القوة، بل اندفع الكل للمساهمة في المجهودات الحربية المختلفة. ولم يشذ في الواقع عن ذلك الاجماع سوى صوت أحد الشيوخ الذي عبر عن استغرابه لعدم قيام قليل من سرايا قوة دفاع السودان بالهجوم الفوري على الجيش الإيطالي (المكون من 100,000 رجلا) الذي يواجههم. وعبر ذلك الشيخ بصراحة شديدة وبأوضح العبارات عن عدم رضاه من "التراخي البريطاني"! ولا ريب أن اللواء بلات، قائد قوة دفاع السودان، كان يشعر أحيانا باستحالة مهمته في صد القوات الإيطالية التي تفوق قواته في العدد والعدة. فقد كان عليه حراسة 1200 ميلا من خطوط السكة حديد بين أتبرا وبورتسودان وكسلا وسنار والخرطوم ضد هجوم جوي، أو هجوم بري مفاجئ. وكان عليه أيضا حراسة كبري البطانة عبر نهر الأتبراوي، إضافة بالطبع للحدود الممتدة من مصر

السودانيون المستأمنون

إلى الحبشة. وعملا بالقاعدة التي تقول بأن لا فائدة من الانتصار في المناطق الحدودية وخسارة العاصمة، قام اللواء بلات بالحفاظ على كتائبه البريطانية الثلاث في مدن الخرطوم وأتبرا وبورتسودان حماية لها. ولم تكن هنالك عوائق تذكر أمام تقدم القوات الإيطالية إن هي أرادت التقدم نحو ساحل البحر الأحمر على الحدود التي يبلغ طولها خمسة وعشرين ميلا، إذ أنه ليس هنالك في تلك المنطقة أي إمكانية للتدخل البري من الغرب، وهي منطقة محمية من جهة الشرق. ومعلوم أن نحو 80 - 90% من البشر والبضائع التي تدخل إلى السودان تأتي عبر ذلك البحر. ولا شك بأن فقد السيطرة على تلك الحدود والميناء الرئيس كان سيكون أمرا كارثيا.



لم تؤخذ السلطات المدنية والعسكرية على حين غرة تماما باندلاع الحرب. فقد كانت قد استعدت لما يفرضه ذلك الواقع الجديد. فقد قامت تلك السلطات عقب ميونخ (المقصود - بحسب ما ورد في موسوعة الويكيبيديا - هو «معاهدة ميونخ أو اتفاق ميونخ هي اتفاقية تمت في ميونخ في 30 سبتمبر 1938م، بين ألمانيا النازية، وبريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وكانت بمثابة تسوية تسمح بضم ألمانيا النازية لمنطقة السوديت التابعة لتشيكوسلوفاكيا والتي يعيش فيها مواطنون ناطقون بالألمانية في محاولة لاحتواء ألمانيا وتجنب اندلاع حرب عالمية أخرى. المترجم) بجمع الكثير من المواد الاستهلاكية الضرورية وغيرها وخزنت تحسبا ليوم يمكن أن يجد السودان نفسه فيه مقطوعا عن العالم الخارجي، ومعتمدا فقط على موارده الذاتية الشحيحة. وتم استيراد نصف مليون عربة نوم

السكة حديد، وجمعت أيضا كمية كبيرة من مستلزمات المستشفيات وأقنعة الغاز والأجهزة المضادة للغازات، وخزنت أيضا كمية كبيرة من الأقمشة والجلود. ولم تفت على المسؤولين حتى الأشياء الصغيرة مثل أعواد الكبريت. وعند إعلان إيطاليا الحرب، قامت المصالح المدنية المختلفة (التي كانت قد حولت مهامها بالفعل من مهام مدنية إلى أخرى عسكرية بمد القوات السودانية بما تحتاجه) بمضاعفة جهودها والعمل على تغطية احتياج البلاد بأنواعها. وكانت أكثر المصالح نشاطا في ذلك المجال هي مصلحة "المخازن والمهمات"، التي زادت من أعداد العاملين بها من 400 إلى 6,000 في نحو عام واحد. وتم في منتصف عام 1940م ضم مصلحة "المخازن والمهمات" إلى مصلحة "النقل الميكانيكي" التابعة لقوة دفاع السودان، وإلى مصلحة "المهمات البريطانية" لتكون ما عرف بـ "قسم إمدادات الحرب"، الذي قام على تأسيسه ببراعة فائقة الرائد قاي فولي (الحاصل لاحقا على وسام فارس الإمبراطورية البريطانية O.B.E). بحسبانه المسئول الأول عن المهمات. وشملت مهماته إنتاج العربات المصفحة، والعربات، والأسلحة، وصيانة قطع السلاح التي يغنمها أفراد قوة دفاع السودان من العدو، وتوفير مشابك القنابل (bomb - clips) لسلاح الجو الملكي، إضافة للملابس الداخلية للممرضات العاملات في "قوات فرنسا الحرة"، ونسج غطاء قرمزي اللون للمظلة الاحتفالية التي صُنعت لإمبراطور الحبشة الذي كانت مصلحة السكة حديد قد زودته من قبل ذلك بثمانية طبول نحاسية كبيرة. وتولت تلك المصلحة صناعة بالون ضخّم لرصد الأحوال الجوية بطلب من الفرنسيين في فورتلام، وجهاز لتحديد الوجهة لسلاح الجو الملكي، ولأقواس

لسهام حارقة استخدمت في حرق أكواخ العدو في نتوء بارو Baro Salient بإثيوبيا.

وكانت "مصلحة المخازن والمهمات" قد قدمت مساهمات قيمة، حتى قبل بدء العدائيات، في الحملة الناجحة ضد الحبشة التي ستأتي بعد ذلك. ولم تكن المدافع الرشاشة الخفيفة من نوع برن Brenlight machine gun تعمل بصورة حسنة في السودان تحت ظروفه المدارية المعروفة. غير أن تلك المصلحة أفلحت في إصلاح الأعطاب قبل وقت كافٍ سمح لزواردة الحربية (في بريطانيا) بعمل التعديلات اللازمة. ولكن، على الرغم من الاهتمام الذي كان قد أولى لتوقع كل الاحتمالات والظروف إلا أن بعض المشاكل غير المتوقعة قد قابلت قيادة القوات في السودان. فقد جاءت للسودان الفرق الهندية الرابعة والخامسة وليس معها أي نوع من الأدوات المكتبية، وكان لزاما على السلطات السودانية تزويدهم بكل ما يحتاجونه من أدوات مكتبية وأقلام وأحبار وطاولات ومقاعد واستمارات مطبوعة خصيصا لهم.

وتولت مصلحة السكة حديد بناء كل الإنشاءات العسكرية. وكان عدد العمال بتلك المصلحة يبلغ 2,000 من الرجال والصبيان، مع قليل من الإنجليز الذين كانوا يتولون مهمة المساعدة أو الإشراف عليهم. وسيغدو كل هذا الأمر أكثر تميزا ووضوحا عندما يتذكر المرء أن السودان مجتمع زراعي، وليس مجتمعا عالي التصنيع والتقنية. فلم يكن في السودان قبل أقل من نصف قرن أي فرد يشتغل بالبناء / النقش الحجري أو الحدادة أو النجارة أو الهندسة، ولم يكن هنالك فنيون لصناعة أي شيء عدا الحراب والمعاول وقليل من المعدات الزراعية البدائية.

وعوض الارتجال البارع بعض النقص الذي لم يكن منه بد، فحول الزُّنْبُرُكُ في سيارة الفورد القديمة إلى منجل، وقطع الحديد الخردة إلى مفاصل للأبواب وغيرها. وقُطعت علب ماء الصودا والبيرة وحولت إلى أكواب. وصنعت من أخشاب صناديق البضائع المعبأة القادمة بالطائرات من أمريكا أثاثا استخدم في المؤسسات والمستشفيات والمعسكرات والمقاصف. وصنع الطُوب الخَرَارِي من الطوب العادي المكسور بعد إضافة الاسمنت له. وعندما أنشئ معسكر في أركويت تم بناء الحمامات فيه من خليط من الخرسانة والزجاج المكسور، ومسح الخليط حتى صار ملمس أسطح تلك الحمامات «يسر الناظرين» كما أعلن ذلك أحدهم من الإذاعة السودانية بأمر درمان. ومن أجل الاقتصاد في استخدام الفحم، بدأت القطارات في استخدام مصدر جديد للطاقة هو قوالب الفحم المحلي أو بذور القطن. ووجد أن بذور القطن كانت مصدرا لا بأس للطاقة عندما تبدأ المحركات في العمل، ولكن كانت تلك المحركات تجد عسرا شديدا في أن تخرج كمية كافية من البخار عندما يتوقف القطار. وعادة ما يصدر القطار أصواتا تشبه النخر والشخير عندما يبدأ في مغادرة المحطة وكأنه يعبر عن عدم رغبته في الاستمرار في تلك الرحلة. واستخدمت بذور القطن كمصدر للطاقة أيضا في البواخر النهرية. غير أن استخدام تلك البذور كان سببا في إصدار حرارة شديدة في أرجاء الباخرة جعل من الصعوبة الإمساك بالشوك والسكاكين والمعالق في صالون الباخرة من فرط الحر. وكانت الباخرة في الواقع «محرقة طافية»، فقد كانت تطلق شررا متوهجا من مدخنتها طوال مسيرها.

وكانت من وظائف مصلحة الأشغال العامة، إضافة لمهامها المعتادة، تحضير أو نظافة مئات الأميال من الطرق وخطوط

السودانيون المهتمون

السكة حديد، وتشديد طرق جديدة قرب المخازن والمستودعات، وإقامة محطات لاسلكي، وإنشاء مصانع مكيفات ومحطات توليد الطاقة، وتصنيع عجلات الجرارات، وحوامل بنادق لويس، ودروع حاملات مدفع برين، ومضخات الطرد المركزي، وهياكل الحافلات، والنقلات، ومستلزمات عسكرية عديدة أخرى. وأقيمت مما توفر من مواد محلية تسعة مطارات صغيرة دائمة وعشرين حظيرة كبيرة للطائرات. وحفرت آبار جديدة في كثير من الأماكن بعد واجهت الأعداد المتزايدة من القوات في البلاد صعوبات جمة في الحصول على الماء. وبقيت ثلاث سفن معطوبة راسية في ميناء بورتسودان في انتظار الإصلاح. وكانت تلك المدنية تعاني من نقص المياه بسبب ثلاثة سنوات متتالية من شح الأمطار. وكان من المهام الجانبية لمصلحة الأشغال العامة تصنيع الأصباغ لتمويه الخيام، وأعيد استخدام الأخشاب التي تصنع منها ليستخدم في إيقاد المواقد لتحضير تلك الأصباغ. وبذلت بعض المحاولات لاختراع صبغة تطل بها الإبل بغرض التمويه. غير أن الإبل رفضت بقوة وشمم القبول بأن يصبغ وبرها وهي حية تنظر، مما دعا من فكروا في اختراع تلك الصبغة للعدول عن الأمر برمته.

وتفاوتت أنشطة الحكومة بين تحضير السائل اللمفي والأمصال إلى إنشاء مصنع لأعواد الثقاب في جبال الأمازونج، ومصنع لقديد اللحم في الجنوب، ومحطة إذاعة في أم درمان. وتفاوتت أيضا بين طباعة منشورات باللغة الأمهرية عليها ختم إمبراطور الحبشة، إلى تصنيع آلة بعث البرقيات وإشارات اللاسلكي، ومدرجات معدنية للطائرات. ومن تعيين موظفين للعمل في المنارات بالبحر الأحمر، إلى

نقل آلاف الجالونات من المواد البترولية بعيدا عن المناطق المعرضة لقنابل الأعداء.

ورغبة منهم في المساعدة، عمل صبية بين سن الثانية عشرة والسابعة عشرة في خدمة المجهود الحربي تطوعا لمدد تصل إلى عشر ساعات في اليوم. وكان كثير من أولئك الصبية يتلقون العلم في مدرسة تديرها «مصلحة المخازن والمهمات». غير أنهم وجدوا في عملهم كمتطوعين في خدمة المجهود الحربي فرصا أوسع وأكثر تجانسا للتعليم من مجرد تعلم القراءة والكتابة والحساب (في الأصل The three Rs: Reading, Writing and Arithmetic. المترجم) أو تعلم مواد أخرى. وفي كل يوم من أيام الأسبوع يخرج نحو ألف من السودانيين من بيوتهم عند الخامسة صباحا لركوب عربات الترام المزدحمة، أو يعدون نحو قطارات لا تتوقف لهم، متوجهين نحو مكان عملهم الواقع على بعد نحو عشرة أميال بالقرب من «شجرة غردون» (المقصود هو «شجرة ماحي بيك» التي سميت لاحقا «شجرة غردون» في حي الشجرة الحالي. المترجم)، ويؤوبون لبيوتهم بعد ساعات من مغيب الشمس. وكانوا يبقون جوعى لساعات عندما يفوتهم اللحاق بالترام للرجوع لدورهم. ولم يكن أحد منهم يعبأ بأخذ عطلة أو العمل لثمان ساعات في اليوم.

لم تكن كل أعمال السودانيين مقصورة على مقابلة الاحتياجات الحربية فحسب. فقد تمت صناعة 200,000 عنقريب (هيكل سرير bedstead يصنعه السودانيون من الخشب وينسجون حوله سُيورا/ قِطْعًا مُسْتَطِيلَةً مِنَ الْجِلْدِ أَوْ الْحَبَالِ. المترجم) ليستخدمها الجنود في مناطق الشرق الأوسط المختلفة مثل مصر وسوريا وفلسطين)،

السودانيون المستأثرون

ومقابض مختلف أنواع الآلات، وكميات كبيرة من الحبال يمكن أن تلف بها الكرة الأرضية. وقام الأهالي ببيع أبقارهم وأغنامهم من أجل دعم المجهود الحربي، مدفوعين بلا ريب بسبب ارتفاع الأسعار، من أجل إطعام الجنود في السودان وخارجه، وأُخليت كردفان ودارفور من كل الخيول الصالحة للخدمة العسكرية، وذلك لاستخدامها في النقل في الأماكن التي يتعذر فيها سير المركبات الآلية.

وأحكمت السيطرة على التجارة، وأدخل نظام دعم الأغذية، وحفظت الأرباح التي تجنيها الحكومة نتيجة لسيطرتها المركزية على تجارة التصدير في صندوق إستئماني لصالح كل أفراد المجتمع. وارتفعت مستويات (غلاء) المعيشة بمصر وفلسطين بنسبة 300%، ولكنها لم تتجاوز 100% في السودان. وظلت السيطرة على الوضع الاقتصادي في السودان محكمة حتى أنه أعلن في أبريل من عام 1944م عن فائض في ميزانية ما عرف بصندوق الاستقرار (stabilization fund) يزيد عن £ 700,000. ورغم أن ما حدث من تضيق في المعيشة والتجارة كان مزعجا لذلك الشعب الأبى والشديد الاستقلالية، إلا أنهم تقبلوها في ولاء وإخلاص بسبب الثقة التي بناها الحكم البريطاني في غضون أربعين عاما.



وفي خضم كل الاضطراب الذي أحدثته الحرب كان لزاما على الحكومة أن تضمن الحياة اليومية للمواطنين تسير سيرها الطبيعي، وأن تدار شؤون الناس بإدارة مدنية. وبالطبع لم يتغير معدن المجرمين إلى معدن طيب بسبب تلك الحرب، ولم يتحول الآثمون

إلى تقاة صالحين فقط لوجود عدد أقل من رجال الشرطة ليمنعوا جرائمهم أو يجلبوهم للوقوف أما عدالة متأخرة.

وتمت كذلك مكافحة الجراد (أهم حليف للعدو) بوسائل مختلفة منها دوريات - من على البعد - وتنظيف مئات الأميال من القنوات من الحشائش في منطقة الجزيرة (بين النيلين الأبيض والأزرق). ولم تتوقف حركة البحث العلمي والخدمات الطبية، ولا المنازعات القضائية بين الخصوم في القضايا المدينة (مثل النزاعات حول الأراضي بين الجيران) بسبب حرب تجري على بعد مئات الأميال. واتخذت الإجراءات المناسبة لضمان استمرار سفر الحجاج إلى مكة رغما عن المشاكل الحادثة في البحر الأحمر. وصار المفتشون (الإداريون) - رغم تناقص عددهم - يجوبون المناطق الأكثر تخلفا بصورة متكررة، وهم مجهدين ومرضى أحيانا، من أجل تذكير الأهالي بوجود الحكومة، ولتطمينهم كذلك بأن الأمور تحت السيطرة. ومع انحسار الحرب من السودان زار كثير من المسؤولين المناطق التي سبق للعدو احتلالها وتم طردهم منها. وبعث بالمجيديين منهم للغة العربية والعارفين بالعادات الإسلامية لإدارة بعض البلاد البعيدة مثل العراق وفلسطين وأرتيريا وكيريناكي (برقة). وتم إعارة العاملين بمصلحة المعارف (التعليم) إلى عدن، والقضاة الشرعيين إلى نيجيريا.

وأدى كل أفراد شرائح المجتمع، في أوقات فراغهم، أدوراهم في العمل كمرشدين عند حدوث غارات جوية، وفي مهام مشابهة أخرى في مجال الدفاع المدني. وتعاون في ذلك النشاط السودانيون والأغاريق والمصريون والبريطانيون والأرمن والسوريون. وتناسى

السودانيون الممتثلون

كل هؤلاء اختلافاتهم العرقية والدينية. فالاغاريق أرثودوكس ورومان، والسوريون كاثوليك، والأقباط يتبعون المسيحية القبطية. وكان هنالك أيضا يهود وكويكرز وغيرهم من أصحاب العقائد المختلفة من "أهل الكتاب". وأسمى هيندرسون ذلك الجمع "جيش الأوبرا الهزلي comic opera army". ولعله كان أكثر التجمعات ديمقراطية في العالم. وكان خريجو كلية غردون التذكارية والموظفون الأوربيون يتدربون جنبا إلى جنب العمال والفنيين. وكان قضاة المحكمة العليا البريطانيون يتدربون معهم وهم يرتدون نفس الزي الرسمي للمتدربين، ويستخدمون نفس الأسلحة مثلهم مثل سعاة (مراسلات) المكاتب والباعة المتجولين في السوق. وكان الناس كلهم يقومون - طواعية - بكل الأنشطة المتنوعة التي من شأنها تحقيق الانتصار في تلك الحرب. وشملت تلك الأنشطة زراعة البطاطس في منطقة نائية لم يسبق للناس فيها زراعة ذلك المحصول، أو تنظيم فرقة لتفكيك الألغام.

وبطريقة أو بأخرى، ورغمما عن كل الصعاب والمشاكل المتكررة الحدوث، إلا أن الحياة في أوساط أفراد المجتمع ظلت تسير سيرها الطبيعي. وبالنسبة للكثيرين لم تكن للحرب تأثيرات واضحة على حياة الناس سوى ارتفاع أسعار بعض المواد الضرورية، أو تقييد أو تقنين بيع بعضها. وناضلت شعوب السودان في خضم دوامة الحرب المضطربة بقوة متجددة وثقة جديدة في قدراتهم الذاتية. وفي حالة غياب رؤسائهم ومستشاريهم البريطانيين، أعطيت للسودانيين - بسبب الحرب - مواقع للسلطة والقيادة والمسؤولية، ربما كان عليهم الانتظار لسنوات قبل أن يتولوها في زمن السلم ذي الإيقاع الأبطأ. ولا

السودانيون المستسلمون

ريب أن السودانيين شغلوا تلك المواقع بكفاءة واقتدار، فكانوا مصدر فخار لأنفسهم وفائدة للآخرين. وأكسبتهم تلك التجربة خبرة أهلتهم لمزيد من فرص القيادة والمسؤولية التي كانت تنتظرهم الآن.



كانت الحكومة السودانية قد تلقت اشعارا بقيام الحرب قبل أربعة ساعات من قيامها. ومهما يكن من طموحات موسوليني الكبيرة، فمن المؤكد أن الإيطاليين لم يستسيغوا تلك الحرب، إذ كانت تعوزهم الرغبة الحقيقية في قتال حلفائهم السابقين، الذين كانوا أصدقاءهم منذ أيام غارibaldi (المقصود هنا هو القائد الإيطالي جوزيبي غارibaldi - 1807 - 1882 م. المترجم) بأكثر مما كانوا أصدقاء لحلفائهم في الصحراء الغربية بمصر. فقبل نصف عام، وتحديدًا في أول يوم من أيام عام 1939م كان الضباط البريطانيون والإيطاليون يتناولون عشاءهم معا في (المتمة) ويحتسون الشراب مع الأمنيات باستمرار العلاقات الطيبة. وقبل يوم واحد من إعلان قيام الحرب فعليا، حذر الإيطاليون الرائد موريس مفوض منطقة غامبيلا من قرب حدوث «أعمال عدائية»، ووعدوه بتأمين خروج آمن له حتى جاكوا (Jokau) شريطة أن تستلم كل قواته في جامبيلا، وأن تترك محطة اللاسلكي بها سليمة دون أدنى تخريب. وحتى بعد ذلك، تمت في مايو من عام 1940م دعوة ضباط قوة دفاع السودان في كسلا والقضارف إلى أسمر كضيوف على الضباط الإيطاليين بالمدينة، إذ أنهم كانوا بمثابة «أصدقاء عبر الحدود».

وربما كان لهذا التأبي وعدم الرغبة في القتال من جانب الإيطاليين،

علاقة بعوز الانتظام والحماس الكافي عند الطيران الحربي الإيطالي، أو ربما كان سبب ضعف مجهودات ذلك الطيران مرده إلى فشل الحكومة الإيطالية في تزويدهم بما طلبوه من شحنات القنابل. وفي يوم السادس من يونيو كانت السفينة الإيطالية س. س. امبريكا (s.s. Umbrica) تمر أمام بورتسودان وهي تحمل 5,000 طنا من القنابل لسلاح الجو في أرتيريا. وكانت تلك فرصة ذهبية ومحيرة في ذات الوقت للسلطات البريطانية في الميناء، وكرهوا أن تفلت من قبضتهم تلك الغنيمة الباردة. غير أن الحرب بين الدولتين لم تكن قد أعلنت، لذا لم يكن لديهم من سبب في اعتراضها. غير أن تلك السفينة شوهدت في اليوم التالي وهي تغرق. ويبدو أن طاقم السفينة هو من أغرقها، بعد تلقيهم لأوامر سرية. وعجل الأدميرال البريطاني الذي كان يحكم عدن، وكان يومها موجودا في بورتسودان، بالعودة إلى رصيف الميناء وهو فرحان جزلاً، ورقص هناك «رقصة المزمارة»، مما أثار عجب سائقي سيارات الأجرة الذين كانوا ينتظرون هناك (بحسب ما ورد في كتاب بي. كينيدي - كوك المعنون «كسلا في أيام الحرب» Kassala at War).

وكان القصف الجوي الإيطالي في غضون أيام الحرب في غالب الأحوال عشوائيا عديم الفعالية وقليل التأثير. وتركز ذلك القصف الإيطالي على قطعان الأغنام والمعز والإبل المتجمعة حول حفائر المياه أو الآبار. وكان من نتائج مقتل أعداد كبيرة من تلك البهائم إثارة غضب ملاكها ورعاتها، وزيادة اهتمامهم بالحرب، وكانوا قبل تلك الموجة من القصف الجوي فيها من الزاهدين. وعندما أصابت إحدى تلك الضربات الجوية شيخا مهما من شيوخ كسلا في مقتل، أشعل

مقتله حماسة رجال تلك القبيلة وجعلهم يقدمون كل ما عندهم للسلطات البريطانية دعما لمجهودها الحربي. وفي غالب الظن لم يكن القصف الإيطالي موجها بدقة نحو هدف معين، بل كانا قصفا متعجلا وعشوائيا، وكأن الطيارون كانوا يريدون إتمام قصفهم والعودة إلى قواعدهم سالمين، أو أنهم كانوا - بحسب حساباتهم الخاصة - يريدون إثارة غضب الناس (على الحكومة الإيطالية). وكان من ضمن المواقع عديمة الأهمية العسكرية التي قصفها الطيران الإيطالي مقر إرسالية السودان الداخلية (Sudan Interior Mission) في دورو (بمديرية أعالي النيل سابقا، وهي الآن بدولة جنوب السودان. المترجم). وكان من ضحايا ذلك القصف قسيسان أمريكيان قتلا، وجرح اثنان من قساوسة الإرسالية. وقصفوا أيضا قباب عائلة ود الحاشي. ومن العجب أنهم نثروا بذات الطائرات منشورات للأهالي تؤكد أن إيطاليا هي حامية الإسلام ومؤسساته. ولكنهم في مرة أو مرتين قصفوا أيضا أهدافا أكثر مشروعية في الخرطوم وأم درمان. وكان لموقع العاصمة بين النيلين الأبيض والأزرق أثر في سهولة "عثور" الطيارين الإيطاليين على المدينة، خاصة وقد كان هنالك قبل وقوع الحرب رحلات طيران مدني بين الحبشة والخرطوم.



وبمجرد إعلان الحرب، وطن السودان نفسه وشد كل عصبية فيه استعداد ليوم لا يقف فيه موقف المدافع فحسب، بل يكون جاهزا للهجوم. وسرعان ما تضاعفت القوات السودانية ست مرات عما كانت عليه قبل وقوع الحرب، ولم يك ذلك بالأمر السهل بسبب قلة

السودانيون المستسلمون

أعداد الضباط، مما استلزم قيام رجال الشرطة بتدريب المستجدين في مراكز التسجيل.

وكانت هنالك العديد من المشاكل المستعصية المتعلقة بالترحيل. فقبل بدء معركة كرن كان لزاما على القوات السودانية تدبير حمولة 1000 شاحنة (لوري) من قذائف المدافع من على بعد يتراوح بين 150 و200 ميلا من أقرب محطة للسكة حديد.

وكان بعد المسافات وعدم كفاية وسائل الاتصال من أكبر عوائق التعبئة. فقد كان لزاما على الجنود القادمين من دارفور مثلا قطع مسيرة ألف ميل سيرا على الأقدام حتى يبلغوا نقاط الحدود التي سيعملون فيها. وتقاطر الرجال المحاربون مسرعين من كل حدب وصوب لمساندة وتعضيد الرجال الشجعان قليلي العدد الذين وقفوا للدفاع عن بلادهم التي كان الدفاع عنها وحمايتها من أهم استراتيجيات الحرب بأكملها.

كانت "قوة دفاع السودان" جزءا من قيادة أكبر، على رأسها اللواء آرشيبولد ويفيل، كانت تغطي كل ساحات القتال في شمال وشرق أفريقيا، وبها قواعد في أماكن متباعدة مثل القاهرة والخرطوم ونairobi. وكانت الامدادات القادمة من بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية تصل بطرق ملتوية لمقصدها عبر البحار إلى بورتسودان، أو بالبر أو الجو من تاكورا دي الواقعة في الساحل الغربي لأفريقيا على بعد 3,000 ميل (المقصود هو مدينة سيكوندي تاكورا دي في غانا. المترجم). وتبعد القاهرة عن نيروبي مسافة لا تقل عن 3,000 ميلا، يتم قطعها بالبر والسكة حديد والنهر.

يا لكبر مساحة الأراضي التي قدر للواء ويفيل الدفاع عنها، ويا

لقلة المصادر التي كانت متوفرة له، فما أن تنتصر قواته في جبهة ما، حتى يضطر لنقل جنوده المرهقين إلى جبهة أخرى على بعد آلاف الأميال. فعلى سبيل المثال نقل ذلك القائد جنود الفرقة الهندية الرابعة من "سيدي براني" في برقة للقتال في كرن، ثم أعادهم للدفاع عن مصر ضد الجيش الألماني بقيادة روميل ("سيدي براني" الآن مدينة مصرية تتبع لمحافظة مطروح، وتبعد عن الحدود الليبية - المصرية نحو 95 كيلومتر. المترجم). وفي مارس 1941م نقلت وحدات أخرى من جنوب الحبشة إلى مصر بعد إكمالها لمهمتها.



كانت مناطق العمليات قد قسمت لثلاثة أقسام (مناطق معارك) أطلق عليها أسماء ملائمة هي: أعالي النيل، والنيل الأزرق، والبحر الأحمر.

1. قوات أعالي النيل:

تمتد منطقة أعالي النيل لمسافة 400 ميل من خور يابوس (وادي موسمي بالقرب من الكرمك. المترجم) الذيقع إلى الشمال على بعد 150 ميلا هضبة بوما، و150 ميلا أخرى من هضبة بوما إلى كينيا. وكان يقوم على حراسة تلك المنطقة الجنوبية سريتان من جنود الاستوائية تم تجنيدهم من رجال بعض أكثر القبائل وحشية وهمجية في السودان. ولحراسة بقية الحدود البالغ طولها 400 ميلا، كان هنالك 192 رجال شرطة مسلحين، إضافة إلى 355 من الاحتياطي. وكان مركز بعض هؤلاء الاحتياطي في مدينة ملكال - التي تقع على بعد 200 إلى 300 ميلا. غير أن معظمهم كانوا موزعين

السودانيون المستقلون

على نقاط عديدة لحفظ النظام في مناطق يقطنها مئات الآلاف من الأهالي، ولم تكن في حاجة لمزيد من التعزيزات.

وعند هطول الأمطار تظل معظم تلك الأراضي تحت الماء، وكثير من المناطق الباقية عبارة عن مستنقعات تجعل تحرك الجنود مهمة عسيرة قاسية، وأحيانا مستحيلة تماما. وقد حدثت حالات اشتباك بين أفراد من قوات "صديقة" بسبب ارتفاع الحشائش الذي يجعل الجنود لا يفرقون بين العدو والصديق. وكان الذباب والبعوض يعذب رجال الشرطة ليل نهارا. ولم تكن هنالك أي مظلات أو أماكن يلجأ إليها العسكر من انهمار الأمطار الغزيرة. وبسبب تلك الأجواء تعذر على الجنود وغيرهم إيقاد النار لتجفيف ملابسهم أو طبخ القليل الذي يملكونه من ذرة بللتها الأمطار. وكان رجال الشرطة يعانون كذلك من قلة الطعام، والذي لم يتعد ذرة قليلة وأحيانا بعض الشاي والسكر وحببات من فول سوداني كان يحافظون عليها في "جراب الجراية" الذي يوضع في حقيبة الظهر. وصف أحدهم حياتهم بأنها كانت تشابه حياة "دجاجة مزركشة / طير غينيا"، في إشارة لما كانوا يلتقطونه من الأرض. ولعبور مجاري المياه الفائضة لم يكن أمامهم سوى السباحة، وهذا يعرضهم لهجوم التماسيح الجائعة.

وكان مع رجال الشرطة (192 فردا) نحو 4000 من الجنود المدربين (أي كتيبة كاملة)، وعدد كبير من جنود الاحتياطي ليسوا بعديدين عنهم. وعلى الرغم من كل المصاعب والمشاق التي فرضتها طبيعة البلاد، والنقص في الامدادات الذي كان مفروضا عليهم، ظلت دوريات الشرطة تؤدي عملها دون انقطاع. وكانوا يشاهدون دوما

وهم يخوضون أو يعومون في المياه لأميال عديدة وهو يقومون برحلات طوافهم المنهكة.

بدأت العمليات العسكرية بغزوات متقطعة على السودان قامت بها قوات مجندة من أهالي الأراضي المنخفضة في الحبشة يسمون (الباندا). وعمل الايطاليون على تشجيع هؤلاء (الباندا) بمواصلة القيام بتلك الغزوات التقليدية التي كانت الانتصار فيها في سابق السنوات لحكومة السودان.

غير أن الأمر الأخطر هو استيلاء القوات الإيطالية على جامبيلا، وهي نقطة تجارية في الحبشة تنازلت عنها السلطات الحبشية قبل سنوات إلى حكومة السودان - وهو تنازل لم تعترف به إيطاليا بعد انتصارهم على الحبشة. وأجبر الرائد موريس ومعه 27 من رجال الشرطة على الخروج من غامبيلا، وهذا مما ترك الباب مشرعا أمام هجوم على الناصر وملكال. وتم سحب القوات السودانية من نقاط أخرى. ورغم قلة أعداد رجال القوات السودانية وكبر عدد القوات المعادية لهم، فقد كانت قوات الشرطة السودانية تقوم بين حين وآخر بمهاجمة قوات العدو وطرد الإيطاليين منها، أو على الأقل إبقائهم في حالة استعداد دائم بمختلف الخدع (الحربية). ففي إحدى الحالات قام أحد رجال الشرطة برفقة البمباشي ويدربين - ماكسويل بدخول الكرمك (وكانت بأيدي الإيطاليين) ونثروا في طرقات المدينة منشورات. وقام شرطي آخر (اسمه جونقبي ليري) بالدخول في ديل Dul ووجدها قد هُجرت تماما، فأثر أن يقضي ليلته في «ميز» الضباط الإيطاليين - وكانت ليلة سعيدة بالفعل مثلت له راحة وتغيرا مرحبا به من حياته الرتيبة.

السودانيون المستأثرون

وبدأ موسم الامطار ينحسر تدريجيا، وبدأت مناطق المنطقة المختلفة تجف. وفي ذات الأيام بدأت الامدادات البشرية والمادية في الوصول. وسجل البريطاني المدني جي . ان. مويسون (نائب مدير مديرية أعالي النيل وقائدها العسكري) بكل سعادة عن استلامه لأربعة مدافع من نوع لويس، والتي سيتدرب عليها رجاله، ومن ثم سيستخدمونها في الدفاع عن ملكال ضد طائرات العدو – رغم أنها ليست السلاح المثالي ضد الطائرات المغيرة، ولكنها أفضل من البنادق على كل حال.

وفي يوم 24 أكتوبر وصل فوج من حراس «بنادقة الملك الأفريقية» إلى ملكال وملوط والرنك. غير أنه لم تكن هنالك أعداد كافية من الجنود المدربين لتخفيف عبء القتال والقيام بالدوريات الذي تحمله، لوقت طويل، عدد قليل من رجال الشرطة المدنيين. (”بنادقة الملك الأفريقية” هو فوج متعدد الكتائب الكولونولية البريطانية اتخذت لها مواقع مختلفة في شرق أفريقيا منذ بداية القرن العشرين وحتى ستيناته. المترجم).



2. قوات النيل الأزرق:

كان على قوات منطقة النيل الأزرق حراسة حدود أقصر (مقارنة بمنطقة أعالي النيل)، فقد كان طولها 160 ميلا، من الكرمك إلى الروصيرص ونهر الدندر – ولكنها كانت أكثر أهمية من المناطق الجنوبية، فقد كانت هي المفتاح للدخول إلى سنجة وسد (خزان) سنار – وهي كانت ستكون أقيم الجوائز للعدو. ولاحقا، أدى

السودانيون المستسلمون

سقوط كسلا في أيدي الإيطاليين إلى قطع خط السكة حديد الدائري (بين هيا - أتبرا - الخرطوم - سنار - القضارف) لم يكن بوسع اللواء بلات إرسال قوات إضافية ومُؤن إلى كسلا إلا عن طريق هيا - سنار. وكان فقدان ذلك الخط عبر خزان سنار سيؤدي لوضع الجزء الجنوبي من ذلك الخط الدائري خارج دائرة العمل، ويضاعف من مصاعبه العويصة أصلا.

وعلى الرغم من أنه كان من المستحيل منع غارات العدو بصورة كاملة، إلا أنه، لحسن الحظ، كانت نُهْيرات وخيران المياه على امتداد الحدود الحبشية، والشجيرات والأعشاب النامية حولها تعيق الإيطاليين من شن هجوم واسع في صيف 1940م، إذ أن موسم الأمطار كان قد بدأ لتوه. وكان عدد رجال الشرطة في هذه المنطقة لا يتجاوز 110، وكان يعوزهم التدريب العسكري. ولم يكن هنالك أي وجود لقوات عسكرية سودانية بالقرب منهم، لذا لم يكن هنالك أي أمل في حصولهم على مدد عسكري. وكان رجال الشرطة هؤلاء موزعين على نقاط صغيرة متباعدة. وما كان يمكن لهم إن هاجمهم قوات العدو سوى الصمود والدفاع بغرض تأخير تقدم تلك القوات، أو الانسحاب لنقطة أخرى والانضمام لقوتها، ومواصلة المقاومة مع رجالها بصورة أكثر فعالية. وكان يجابه هؤلاء الـ 110 رجلا من الجانب المعادي 5000 جندي إيطالي مزودين بالمدفعية والطائرات والمدافع - بنسبة 1 إلى 50، مع الأخذ في الاعتبار الاختلاف الشديد في مستوى التسليح والآلات والتدريب.

وفي السابع من يوليو 1940م هاجمت كتائب من القوات الإيطالية مدعومة بجنود مدفعية ومدافع رشاشة وطائرتين بمهاجمة الكرمك،

السودانيون المستقلون

التي كانت تحت حراسة 70 من رجال الشرطة المدنيين العاملين مع باشمفتش المنطقة البريطاني ميرفن بيل. واضطرت تلك الحامية الصغيرة لاحقا للانسحاب.

وكان هنالك على بعد مئات قليلة من الياردات خارج الكرمك زريبة (أي معسكر) لشيخ أورا (Ora). وجد ذلك الشيخ نفسه محاطا بالجنود الإيطاليين، فأثر الاستسلام والذهاب للعدو، وبلمساعدتهم في الحصول على المواد الغذائية. وبلغت الأنباء باستسلام الشيخ للسلطات في الكرمك، فقام سليمان أفندي أكرت (الذي يعمل الآن نائبا لوكيل السودان Assistant Sudan Agent في لندن) في معية دورية صغيرة إلى داخل زريبة الشيخ وأعتقله تحت سمع وبصر الحامية الإيطالية المستعمرة، وعاد به للسلطات الحكومية. وهنالك قصة أكثر إدهاشا تروى عن الصول عبد الرحمن عبد الله، الذي بقي في الكرمك للبحث عن زوجه. ولم يقدر جنود الجيش الإيطالي قوتهم الكبيرة حق قدرها، وخافوا من هجوم معاكس قد تقوم به القوات السودانية، فبدأوا في الانسحاب. ووجد الصول عبد الرحمن زوجه. ثم قام الصول ومعه ست رجال كانت قد تقطعت بهم السبل في الكرمك بإشعال النار في أسطح المباني الحكومية، وحطم عربتين حكوميتين، وأخذ بعض بغال الحكومة وخزنتها (التي كان بها £600 نقدا)، وآب مزهوا لقاعدته وسلمهم ما جلبه من ممتلكات الحكومة في الكرمك. ويتفق معظمنا أن ميدالية الجدارة (للشعبة المدنية في وسام الإمبراطورية البريطانية) التي منحت لذلك الصول هي مستحقة تماما.

ووجدت السلطات السودانية نفسها مجبرة على الانسحاب من

بعض النقاط الحدودية الأخرى. ولم يكن المزاج الملتبس الغامض لبعض كارهي الحكومة لمنعها تجارة الرقيق بين الحبشة والسودان، ولا العوائق الطبيعية من فيضانات الأنهار وغزارة الشجيرات والحشائش قد منعا انتظام مرور دوريات الحكومة على طول الحدود. وكان مرور تلك الدوريات هو سبب بقاء القوات الإيطالية في حالة استعداد دائم طوال فترة الحرب.

وبالإضافة لتلك الدوريات، كان كل ما يمكن عمله هو إقامة متاريس في الطرق، ومنع أي ثغرات يمكن للعدو من خلالها الدخول للأراضي السودانية، وتدريب المزيد من رجال الشرطة الراكبين على ظهور الخيول، ومواصلة تطمين السكان بأن المدد العسكري قادم في الطريق.

وظل الموقف بالمنطقة شديد التوتر لشهور عديدة، وكانت هناك أسبابا عديدة للقلق. ففي أكتوبر (عام 1940م) تقدمت قوة مكونة من 200 رجلا بقيادة ضباط إيطاليين من الكرمك نحو كيلى (Keili)، وقضوا الليلة في (التمة) التي تقع على بعد خمسة أميال من كيلى. وبلغت البمباشي باركر (المفتش المدني لمشروع زراعي في المنطقة) الأنباء عن قرب وصول تلك القوة المعادية، فقام من فوره مع خمسة وعشرين رجلا شرطة بالتقدم نحوهم. وعند الساعة التاسعة بلغ معسكرهم، ووجدهم يتناولون عشاءهم فباغتهم بالهجوم. ومرت عشر دقائق قبل أن يعيدوا تنظيم قوتهم وأن يردوا على من كان يطلق عليهم النار بالمثل. وأخيرا، لعجزهم عن تقدير العدد والقوة الحقيقية (الصغيرة) لمهاجميهم، أثروا الانسحاب إلى الكرمك وهم يحملون معهم جرحاهم.

السودانيون المتأثرون

وبعد أيام من ذلك الحادث حدث غزو أكثر خطورة مما سبق ذكره. وفيه قامت قوة مكونة من 1500 إلى 2000 من القوات الإيطالية بقيادة العقيد رولي بالتوغل لمسافة ثمانين ميلا في داخل السودان، وبلغوا نقطة لا تبعد بأكثر من خمسة وعشرين ميلا من الروصيرص على الرغم من الهجمات التي شنتها على رتل قواته ثلة من رجال القوات غير النظامية (الصديقة) التي نظمها الزعيم القبلي السوداني الملك نايل. غير أن المضايقات المستمرة التي وجدتتها القوة الإيطالية من قبل رجال الشرطة السودانيين، ومن هؤلاء المقاتلين غير النظاميين، وصعوبة الحصول على الطعام والماء بما يكفي لتلك القوة الكبيرة (نسبيا)، أوقفت تقدم تلك القوة الغازية. وأجبر العقيد رولي على الانسحاب، مخلفا وراءه عددا من الأسرى والقتلى الذين ماتوا بطلقات الأهالي أو الشرطة الذين كانوا يتابعونهم من على البعد. وفي تلك الغزوة الفاشلة خسر الإيطاليون 400 رجلا، وعددا كبيرا من البغال والبنادق التي كتب على كثير منها (شرطة أرض الصومال)، مما يقف دليلا على نجاح الإيطاليين في تلك البلاد التي لا تبعد سوى أميال قليلة من السودان.

وبدأت من خلف تلك الستارة الرقيقة من رجال الشرطة (المدنيين) تحركات ضخمة أخذت تأخذ زخما وقوة. وتم صرف أموال وموّن وبنادق للوطنيين الأحباش، وجمع أعداد كبيرة من الإبل تحضيرا لغزو قوجام (الواقعة في شمال غرب إثيوبيا الحالية. المترجم). واستغرقت تلك التحضيرات عاما كاملا حتى غدت القوات الحبشية مستعدة تماما للتقدم من أجل استعادة بلادها. وتقدمت كتيبة تنجانيقا (2/6th) التابعة لـ "بنادقة الملك الأفريقية" إلى

مواقعها المتقدمة، وتم إعادة تنظيم قوة الشرطة للتعاون معهم. ثم جاءت قوات بلجيكية بعد «بنادقة الملك الأفريقية». وفي بداية يونيو أخذ 225 من الضباط و5000 من الجنود مواقعهم المتقدمة. وتم طرد الإيطاليين من مناطق النيل الأزرق التي كانوا قد احتلوها. وقد كانت أمام هؤلاء الإيطاليين فرصة عظيمة لإحراز نصر باهر باحتلال سنجة وسنار وقطع طريق السكة حديد عبر خزان سنار مما كان من شأنه أن يفتح الطريق أمامهم للخرطوم. ويعزى سبب فشلهم في تحقيق أي من تلك الفرص إلى الحُفنة من رجال الشرطة السودانيين المدنيين، وإلى سرية من رجال الهجانة (النوبة)، وآخرين من كتيبة الحدود الذين كانت لدورياتهم الشاقة أكبر الأدوار في خدع الإيطاليين، وفي دحر هجومهم بكل شجاعة وإقدام.

3. قوات منطقة البحر الأحمر:

كانت منطقة البحر الأحمر أكثر عرضة وقابلية للهجوم من منطقتي النيل الأزرق أو أعالي النيل، إذ أن منطقة البحر الأحمر تجاور أرتيريا التي كانت تتركز بها قوات إيطالية كبيرة. وتقع كسلا (التي تقع تقريبا على الحدود مع أرتيريا) على بعد 270 ميلا من الخرطوم العاصمة، وعلى بعد أقرب من أتبرا، حيث مركز السكة حديد المهم. وليس هنالك أي عوائق طبيعية في الطريق إلى الخرطوم وأتبرا تعيق أي قوات إيطالية عسكرية قادمة من كسلا، فكل الأراضي في هذه المنطقة منبسطة تقريبا، وليس فيها غير نبات (التبس) وأميال من الرمال الممتدة.

وفي يوم 4 يوليو من عام 1940م هاجم الإيطاليون كسلا

السودانيون المقاتلون

بكل ما استطاعوا جمعه من جنود وأسلحة وعربات وطائرات. وشملت قواتهم لواءين استعماريين (في كل واحد منها 3000 جندي مزودين بالبنادق) مع أربعة أفواج من سلاح الفرسان بها 8000 رجلا - وهجانة مع ثمانية عشر دبابة. ودافعت عن المدينة سرية واحدة من المشاة الراكبة مع سرية مدافع رشاشة (رقم 5)، وبعض رجال الشرطة. وألقت الطائرات الإيطالية موجات من القذائف على السودانيين، الذين أمطروهم باللعنات لعدم مقدرتهم على الرد. وتوالى هدير الدبابات، واحدة بعد أخرى، وخيل للمدافعين المهزقين أن سيل تلك الدبابات لن ينقطع. وانهمرت الطلقات النارية كزخات المطر على ما وجده الجنود والشرطة السودانية من سواتر واهية، وظلوا يتحركون في سرعة من مكان لآخر إتقاءً لتلك الزخات المنهمرة. وتواصل الهجوم الإيطالي لاثني عشر ساعة متواصلة دون انقطاع. ولم يكن بمقدور أولئك الرجال القلائل، رغم شجاعتهم الفائقة، الصمود بأكثر مما صمدوا ضد أولئك الآلاف من الجنود المسلحين بآلاتهم الحربية الفتاكة. وكان الانتصار في النهاية من نصيب أصحاب الآلات الحربية الفتاكة، واضطرت الحامية السودانية الصغيرة للانسحاب تاركة خلفها بعض رجال الشرطة الذين صمدوا لمدة طويلة ولم يهن عليهم أن ينسحبوا أمام الغزاة. وظلوا باقين وفي غاية الفخر بأنفسهم لإنجازهم البطولي. وقتل منهم رجل واحد وجرح ثلاثة، وفقد أثر ستة عشر فردا (وجد بعضهم لاحقا طريقه إلى وحداتهم الأصلية). وكان رجال الشرطة الذين آثروا البقاء في مواقعهم وعدم الانسحاب قد أفلحوا في تحييد ما يزيد عن 500 من جنود العدو وما لا يقل عن ست دبابات.

ثم انسحب رجال الشرطة أولئك فرادى ومثنى إلى خارج كسلا، وكانوا مصدرا غنيا لمعلومات قيمة عن قوات العدو. وكانوا يخفون بنادقهم مدفونة في كل ليلة في أماكن مختلفة، ثم قاموا بتهريبها عبر طوق الأمن الإيطالي وهي مخبأة في وسط حزم من القش. ولم تقع في يد الإيطاليين أي غنيمة من القوات السودانية سوى شاحنة واحدة ومدفع حوله نهايات مدببة (spiked) وبعض الذخائر. ولم يفت التخلي عن كسلا في عضد المقاتلين السودانيين ولا في عزيمتهم. ففي أثناء عملية الانسحاب وقعت أروع مشاهد بطولة (معروفة دوما عن السودانيين) جعلت الإنجليز يحبونهم ويقدرونهم بأكثر مما كانوا يفعلون.

تذكر أحد المقاتلين السودانيين وهو على بعد ميل أو ميلين من كسلا أنه نسي حذائه (مركوبه) الذي لا تتجاوز قيمته عشرة قروش (شلنين)، فقرر العودة للمدينة لجلبه. غير أن السبل انقطعت به وهو في المدينة، فلم يستطع الخروج منها مجددا فبقي مختبئا في أحد البيوت، وفي أثناء أيامه هنالك قتل 32 من رجال العدو قبل أن يقتله الإيطاليون.

ومن أمثلة الدفاع المجيد عن مدينة كسلا مثال ذلك الضابط السوداني الذي صمد طويلا مع ثلاثين من جنوده في قلعة بالقلبات ضد هجوم ما لا يقل عن الفين من الجنود الإيطاليين تسندهم المدفعية والطائرات. واضطروا في نهاية المطاف للانسحاب، ولكنهم انسحبوا بمهارة عالية جعلت خسائرهم في حدودها الدنيا. ونال ذلك الضابط وسام "الصليب العسكري" نظير شجاعته ومهارته العسكرية، وكان بذلك هو أول ضابط سوداني ينال ذلك الوسام

السودانيون المتمسكون

البريطاني (الصليب العسكري، الذي أقر في نهاية عام 1914م، هو وسام عسكري من المستوى الثالث يُمنح للضباط لرتب أخرى في القوات المسلحة البريطانية، كما كان يُمنح سابقا لضباط في القوات العسكرية في دول الكومنويلث، المترجم).

وصمد أيضا خمس رجال شرطة أمام هجوم الإيطاليين في منطقة (كرورة) إلى أن اضطروا للانسحاب. وكذلك فعل السودانيون في قيسان في الجنوب.

غير أن الإيطاليين لم يقوموا بأي محاولة لاستغلال تلك النجاحات رغم أنها كانت بالغة الأهمية الاستراتيجية. وعوضا عن ذلك، قاموا بوضع كسلا في حالة دفاعية، وأبقوا بها خمس كتائب على الأقل. ورغم التفوق الكبير الذي نعمت به تلك القوات الإيطالية، إلا أنهم عجزوا عن حماية اتصالاتهم مع أرتيريا، وظلوا يتعرضون لمضايقات مستمرة من رشقات المدافع الرشاشة السودانية التي كانت على بعد ميل أو ميلين خارج المدينة.

ولعل سبب عدم توغل الإيطاليين في داخل السودان كان مرده جبنهم، والذي ازداد مع تلقيهم لمعلومات تعوزها الدقة عن قوة الجيش الذي سيواجههم إن هم غامروا بالتوغل عميقا في داخل البلاد. وبالفعل، كان دوق أوستاقد سئل لاحقا عن سبب فشله في عبور نهر القاش، أجاب بأنه لم يشأ أن يخاطر بأخذ تلك «المغامرة» نظرا لقوة الوحدات السودانية الفاتكة (الأمير والضابط الإيطالي أميديو، دوق أوستا- سافوي، 1898 - 1942م، هو من تولى وظيفة حاكم العسكري شرق أفريقيا الإيطالية، المترجم). غير أن تلك الوحدات التي أتى القائد الإيطالي على ذكرها لم تكن في الحقيقة سوى مَفْرَزَةٌ

عسكرية وحيدة (من مفارز ويرسيسترشاير)، وست سرايا بمدافع رشاشة متحركة، قد تتوقف عن الحركة إن هبت عليها عاصفة رملية في الصحراء.

وبالفعل كانت العواصف الرملية الشديدة (الهبوب) التي حدثت بطوكر في الشهور القليلة التي تلت إعلان الحرب، قد صعبت من القيام بعمليات عسكرية، بل جعلتها مستحيلة التنفيذ أحيانا. ومن الناحية الأخرى كان هنالك دوما احتمال أن يوقف هطول الأمطار الغزيرة تقدم مركبات نقل الإيطاليين - على الأقل لبعض الوقت - إن حاولوا الوصول إلى الخرطوم أو أتبرا. غير أن ما تبين لاحقا أن خطورة ذلك الاحتمال كانت ضعيفة جدا، إذ أن أمطار ذلك العام أتت أقل مما هو معتاد، ولم تجعل التربة غدقة بالماء.

وربما شعر الإيطاليون - مثلهم مثل الألمان - بأن بريطانيا ليس بإمكانها أن تصمد بأكثر مما صمدت، وإنه من غير اللازم تضییع المال وخسارة الأرواح والدماء من أجل نيل جائزة ستكون من نصيبهم في وقت قريب. وربما أحسوا أيضا بأن بلوغهم لأتبرا والخرطوم سيكلفهم موادا بترولية طائلة قد لا يستطيعون تأمينها، خاصة بعد الضربات الجوية التي تلقوها من سلاح الجو الملكي. وكانت إحدى تلك الضربات في (مصوع) ناجحة جدا للحد الذي دعت فيه القوات الإيطالية لتخزين كميات ضخمة من المواد البترولية مخبأة في مستودعات سرية على بعد عدة أميال. غير أن ذلك لم يكن مجديا، إذ هاجم سلاح الجو الملكي تلك المخابئ أيضا بفضل معلومات مخابراتية مفصلة أفضى بها خمس يمانية يعيشون في (مصوع).

وكانت الخرطوم وأتبرا من الأهمية بمكان للإيطاليين، وكان

السودانيون المعتاتلون

بإمكانهم أن يخاطروا بالسعي للسيطرة عليهما. وكان التأثير المعنوي لسقوط المدينتين المهمتين سيكون عظيمًا في كل دول الشرق الأوسط، وستقع مصر تحت تهديد خطير من جهة الجنوب في الوقت الذي كان روميل فيه يتقدم إليها من جهة الغرب. ولم يكن استيلاؤهم على أترا يعني مجرد الحصول على ورش السكة حديد المهمة فيها، بل تمام السيطرة على كل خطوط السكة حديد إلى بورتسودان وكسلا والحدود مع مصر. وباستيلائهم على الخرطوم، كان يمكن للإيطاليين ضمان السيطرة على كل الخطوط المؤدية للجنوب والغرب، وعلى المواصلات عبر النيلين الأبيض والأزرق، والسيطرة أيضا على مساحات شاسعة من أراضي الجزيرة الخصبة المزروعة بالقطن والحبوب، والتي يمكنها أن تسد حاجتهم من هذه المحاصيل.

ولم يكن أمام قوة دفاع السودان، وهي تدرك صغر حجمها وضعف تسليحها، أن تفعل شيئا أكثر من تمويه ضعفها ومحاولة خداع الإيطاليين وإيهامهم بأن لهم قوة ضخمة العدد وحسنة التسليح. وقد أفلحوا في ذلك لدرجة مذهلة. وشن رجال قوة دفاع السودان بعض الهجمات الصغيرة في كل المناطق التي غزاها العدو، بينما تولى سلاح الجو الملكي (وعدد طائراته لا تزيد عن خمس العُشر طائرات الإيطاليين) قصف مطارات العدو وخزانات وقوده في صباح اليوم التالي لإعلان الحرب، مما حوله لموقف الدفاع. وقامت سرايا المدفعية بقصف ما وراء خطوط العدو بمدافعها الرشاشة. وذات يوم مشهود هاجمت عربتان مدرعتان 1200 من رجال سلاح الفرسان وقضت عليهم جميعا.

وظلت الدوريات، وكل فرد (في قوة دفاع السودان)، في أي مكان يمكن أن تقاد به سيارة، أو يتسلق فيه بشر لا يتوقفون عن إزعاج الإيطاليين في كل الاتجاهات، وبث الرعب في قلوبهم، وتشجيع كثير منهم على التخلي عن ولائهم للجيش الإيطالي والانضمام للبريطانيين. وكان البريطانيون بعد كل هجوم يشنونه على موقع يحتله الإيطاليون يجلبون معهم عند أوبتهم كما قيما من المعلومات النافعة. وكان جَوَاسِيسُ السودان يجوبون مناطق أرتيريا بحرية دون أن يلحظهم الإيطاليون، بل كان بعض هؤلاء الإيطاليين كثيرا ما يزودونهم بالكثير من المعلومات عن تحركات القوافل الحربية وأوضاع الجنود ومواقع تجمعاتهم. وحرص كل فرد في قوة دفاع السودان على عدم إطلاع الإيطاليين على الأعداد الحقيقية للقوات السودانية. وتم اعتقال كل الجواسيس والعيون التي بثتها إيطاليا بالسودان بمجرد دخولهم للبلاد بفضل يقظة السودانيين المخلصين. وتحصل البريطانيون على وثيقة مهمة كتبها ضابط إيطالي عبر فيها - بحسرة - عن عجزه عن الحصول على أية معلومات يمكن الاعتماد عليها أو الوثوق بها عن مجريات الأحداث بالسودان. غير أن ذلك الضابط - وغيره - كانوا يتلقون معلومات كثيرة (مضللة) من الأهالي بقصد نشر شائعات كاذبة ومثيرة للشكوك والمخاوف من غير داع. ولبعض الوقت لم يكن هنالك شيء بين الحدود والنيل سوى بعض سرايا المدافع الرشاشة المتحركة في المناطق المجاورة لكسلا. لذا أرسل اللواء بلات (قائد قوة دفاع السودان) قوة عسكرية بالقطار إلى القضايف لتكوين احتياطي لحراسة كبري البطانة على نهر أتبرا، ولحماية منطقة القلابات. وكانت الأوامر الصادرة لرجال

السودانيون المستسلمون

تلك القوة تتضمن أن يقوموا بدوريات في سائر أرجاء المنطقة وأن يتعرفوا على كل شبر فيها، وأن يروا كل شيء وأن يراهم الناس. ورافق اللواء بلات تلك السرية في رحلتها، وقضى معهم يومين أو ثلاثة (وهو في حراسة عريف من يوركشير واثنين من العسكر) في الحديث مع عدد كبير من الأهالي، وكان يصر على أن يختلط هو (مع البريطانيين الآخرين) بأكبر عدد من السودانيين وأن يستمع منهم مباشرة.

وضخمت الشائعات من قوة السرية التي بعثت بها قيادة قوة دفاع السودان فصار عدد أفرادها - كما أشيع - يصل بين 4 إلى 5 ألف مقاتل، وصارت حاملتي مدفع البرين عندهم إلى دبابات! ولما وصلت للسودان الفرقة الهندية الخامسة وصل خبرها للإيطاليين على أنها خمس فرق هندية!

غير أن الخداع لم يقتصر على التقارير الشفوية. فقد كانت سرايا المدفعية المتحركة القليلة العدد مراوغة وتظهر في كل مكان مما دعا قادة وجنود العدو لتسميتها بـ «الشياطين السود». وورد ذكرها في إحدى التقارير الاستخبارية الإيطالية التي تم الاستيلاء عليها بعد وقت قصير من صدورها، حيث أشاد ذلك التقرير بنشاطها الكبير. وأضاف التقرير: «هذه العربات المصفحة تظهر هنا اليوم، ثم تشاهد في صباح اليوم التالي في مكان يبعد مائة ميلا عن المكان الأول. هي في حالة حركة دائمة، ويصعب حصر عددها.»

لم يكن من الصعوبة حصر عدد تلك المتحركات، فعددها الحقيقي لم يكن يتجاوز الخمسة وثلاثين. وليس صحيحا أنها كانت في حالة حركة دائمة، فهطول الأمطار، أو حتى احتمال هطولها يمنع تحركها.

فعددها قليل وهي أثمن من أن تعرض لخطر العطب بسبب عاصفة غير متوقعة. غير أن تلك السرايا المتحركة قامت تحت قيادة عدد قليل من الضباط البريطانيين بدوريات على طول الحدود، وأسست لتفوق أخلاقي على الايطاليين، ومنعتهم من القيام بأي هجوم كبير. وفي تلك الأيام قدم رجال قبيلة الهدندوة خدمة عظيمة (لقوة دفاع السودان) بتخليهم عن عزلتهم المعتادة وتحفظهم التقليدي عند اندلاع الحرب وانضموا لما سمي "فيلق القوة الباردة" المكونة من رجال الـ «فزي ويزي» غير النظاميين. وعمل هؤلاء - دون مقابل مادي - كمرشدين، وكجواسيس للحكومة في أرتيريا، وألقوا القبض على ثمانية وعشرين من جواسيس العدو الذين دخلوا منطقة البحر الأحمر.

وفي بادئ الأمر كان تعليم هؤلاء الـ «فزي ويزي» من صائدي الوعول المتطوعين وتدريبهم على أي قدر من قواعد النظام العسكري أمرا مستحيلا. وكان هؤلاء الرجال قد تطوعوا لإداء مختلف أنواع الأعمال بسبب عشقهم للقتال وولائهم للبريطانيين. بل إن واحدا منهم رفض رفضا تاما أن يقوم بعمل ما يسميه جنود القوات النظامية «the old army stuff» (مثل تدريبات السير في طابور وغيرها)، بل وسخر من تلك التدريبات العسكرية وسمّاها "لف جاي وجاي". غير أن البريطانيين لم ييأسوا من محاولة تدريبهم عسكريا بطريقة تدريجية. وكانت تلك أيضا محاولات لم يكتب لها كبير نجاح بسبب إصابة هؤلاء المتطوعين بالملل سريعا من التمارين العسكرية. وتطلب الأمر إدخال بعض الألعاب والمنافسات على القفز أو العدو أو السباق في الجبال وغيرها لكسر رتابة التمارين.

وقد يعزى فشل الإيطاليين في تقدير الموقف إلى خيالهم الجبان

السودانيون المستقلون

الذي ضخم لهم تلك الدوريات المحدودة التي كانت تقوم بها "قوة دفاع السودان" على الحدود، وصور لهم تلك القوة على أنها جيش كبير لا يقهر. وقاد الرائد لي قوة في "خور آشات Ashat" سماها على اسم عائلته (قوة ميدو Meadow Force) مكونة من أربعة عشر رجلا من المتطوعين ومعهم ثلاثين من المدنيين غير المسلحين الذين عهد إليهم برعاية الجمال. وسخر ذلك الرائد لاحقا عندما وقع في يده تقرير كتبته مخابرات القوات الإيطالية جاء فيه أن (تقديراتنا الأولية لقوة العدو في "خور آشات" كانت مبالغاً فيها. ولكنه من المؤكد الآن أن القوة لا تتكون إلا من لواءين بريطانيين، رغم أن لهم أيضا بعض الدبابات)!

وفي "خور يابس" وقع هجوم مباغت على خمسين جنديا إيطاليا على رأسهم ضابط أدى لمقتل أو اعتقال معظمهم. والطريف أن ذلك الضابط كان قد فرغ لتوه من كتابة تقرير لقائده جاء فيه: (أنا أضمن لك عدم وجود أي قوات بريطانية في حدود ثلاثة كيلومترات حول "خور يابس").



يجب علينا الاعتراف بأن القوة التي كانت تحرس الحدود في انتظار وصول التعزيزات كانت قوة مختلطة. فقد انضم إلى تلك القوة المحاربة كل من تم اعفائه من العمل بالمكاتب الحكومية أو الشركات التجارية. ولما بدأت الحرب فعليا كان على هؤلاء المتطوعين تعلم ما يمكن لهم عمله فيها. وشملت تلك الاعمال فن استخدام البنادق (ضرب نار)، والاشارة، والاستطلاع، وأعمال الهدم، وكيفية

تشغيل المدافع، وحتى جهاز إرسال البرقيات. كل هذا والعدو على بعد أميال قليلة.

لقد كان عليهم، وهم مجموعات صغيرة من الجهلاء بأصول العسكرية، خوض معارك ضد جيش مهني. غير أن المهارة والبراعة التي كانوا يعالجون بها ما يقابلونه من مواقف صعبة كانت جديرة بالإعجاب. كانت عملية «انتاج هواة» جمعت الباشمفتشين، وعمال وموظفي السكة حديد، ومزارعي القطن، مع آخرين من مختلف المهن وجدوا أنفسهم يرتدون الزي العسكري، وكتب عليهم أداء أدوار غير متوقعة من دون أي تحضيرات أولية. وأتى بروفيسور متخصص في الشعر من جامعة القاهرة ليقود سرية من المقاتلين المتطوعين الإثيوبيين. وعمل عالم أنثروبولوجيا كرئيس لفرقة فنية يعوزها التنظيم قدمت عددا من العروض الغريبة، غير أنها لاقت نجاحا كبيرا. من كان سيلومهم إن أخفقوا في أداء أدوارهم وفي حادثة غريبة قام أحد الباشمفتشين بعبور القاش وتسلسل إلى داخل مدينة كسلا وهي تحت الاحتلال الإيطالي، ونفذ عملية هدم لمبنى البريد والبرق. وكانت عملية ناجحة بكل المقاييس لدرجة أن الباشمفتش نفسه وجد نفسه مقذوفا إلى الخارج عبر باب المبنى! وبعد مواجهات عديدة مع الجنود الغزاة تمكن بمعجزة من الوصول إلى عربته التي كانت قد وحلت في رمال القاش، واستطاع بصعوبة الهروب والوصول لوحده.

غير أن ارتجال هؤلاء الرجال فيما قاموا به من أعمال كان ناجحا جدا، تماما وكأنها قاموا بها بعد دراستهم لكتب العلوم العسكرية. وكان البمباشي وعالم الأنثروبولوجيا ايفانز بريتشارد

(له دراسات وأبحاث مهمة عن قبيلة الأزاندي والنوير. المترجم) لا يسعد إلا إذا كانت كل الظروف تقف ضده. فكان أكثر من التجوال في المناطق التي احتلها العدو مع رقيب في الشرطة وبعض رجال قبيلة الأنواك Anyuak / Anuak من الجنود غير النظاميين (ويا له من عدم انتظام لا يعرف قدره إلا من رأى أحد رجال الأنواك العراة في قريته المحاطة بالحظائر على الحدود الحبشية!). وفي أحد المرات وجد ايفانز بريتشارد نفسه وجها لوجه أمام قوة مكونة من 100 إلى 150 من جند العدو تحت قيادة ضابطين إيطاليين. حذر الضابطان ايفانز بريتشارد وأمرأه بالانسحاب فورا وإلا سيحدث قتال بينهم. أجابهم في هدوء بأن القتال هو ما أتى به لهذا المكان، وما قدر له أن يكون. وفي حادثة أخرى، كان ايفانز بريتشارد قد زود بقوة من رجال الشرطة العاملين في مجال الاستطلاع. فخرج بهم «بحثا عن المشاكل في بينقودو، حيث أفلح في العثور على الكثير منها: وجد نفسه في مواجهة قوة كبيرة من رجال العدو. غير أن ذلك لم يثن من عزمه، إذ استخدم تكتيكا لا يوجد في الكتب العسكرية، ومضى - مع رجاله - في الهجوم على الأعداء فقتلوا منهم سبعة عشر رجلا، ودمروا مقر قيادتهم، وغنموا منهم 35,000 ليرة.

وكانت للبمباشي باركر (الذي كانت له آراء وأفعال تخالف ما هو متعارف عليه في علوم العسكرية كما ذكرنا آنفا). غير أن هؤلاء «القادة الهواة»، رغم غرابة أفعالهم، كانوا في معية رجال شجعان. ولاحقا، جمع أحد قادة السرايا في معركة كرن أطراف شجاعته وسأل اللواء بلات إن كان من حسن التكتيك أن يستخدم كل احتياطييه فيما عدا ثلاث دبابات، أقر اللواء بلات بأن ذلك سيكون مخالفا لما ورد

في كل الكتب العسكرية التي ألفت، غير أنه يظن أنه يمكن تبرير الاختطار (risk) بالنتيجة النهائية.

لم يكن المشاركون في العمليات العسكرية يرتدون دوما الأزياء المناسبة. فقد كان على حكومة السودان أن تزود ما لا يقل عن 8 أنواع مختلف من الأزياء والمعدات للبعثة الاثيوبية، وقوات فرنسا الحرة، وبنادقة الملك الأفريقية، ولهنود، والسودانيين، وآخرين كذلك. ولم يتبق شيء ليعطي للجنود المتطوعين / غير النظاميين، وبذا كان عليهم تدبير أمر زيهم بأنفسهم. ولكنه كان من الغريب حقا أن تمر برجل عار تماما من القمز Gummuz (أحد أكثر القبائل السودانية توحشا وهمجية) وهو يقوم بمشقة بالغة بتوصيل رسالة سرية (ليست مشفرة). وذات مرة كان اليمباشيلوري (أحد المفتشين في القسم السياسي لحكومة السودان الذين كانوا على رأس سرية هجانة) يقوم بجولته الصباحية المعتادة في المنطقة عندما وجد أحد رجال النوبة، وهو يحمل بندقيته وذخيرته ويضع خوذته على رأسه، ولكنه كان عريانا تماما. فسر الرجل ذلك ببساطة بالقول بأنه سأم من (غسل) وتجفيف ملابسه، ويفضل أن يبقى بدونها، تماما كما يفعل في بيته / موطنه الأصلي.

غير أن صفة الشجاعة عند الجنود السودانيين لازمتها صفة أخرى هي اللامبالاة وعدم الاكتراث، وهذا ما أحدث قلقا كبيرا عند قادتهم. ففي ذات مرة استلقى أحد الهدندوة على ظهره بجانب قنبلة لم تنفجر بعد أن كان قد أمر بالاستلقاء على الأرض في حالة حدوث غارة جوية. وكان كل شيء سيمر دون مشكلة إن لم تغلب على الرجل روح الفضول الزائد، إذ أنه أخذ عصا صغيرة وطفق ينقر على القنبلة

السودانيون المستأثرون

إلى أن انفجرت فجأة فيه ومزقته إربا أمام ناظري ولده الصغير الذي كان قد نصحه بعض زملاء الرجل بالبقاء بعيدا عن أبيه لعدم ثقتهم في أنه سيبقى ساكنا لفترة طويلة!

وفي حوادث الحرب الأخرى، التقط أحد "الفيزي ويزي" قنبلة صغيرة وهو يحسبها قارورة دواء، وحاول فتحها بإزالة ما ظنه سداداتها بإزالة رأسها. وكان ذلك "فعلا مبالغا فيه حتى بالنسبة لقنبلة إيطالية!"، كما قال البريطاني كينيدي - كوك ساخرا. وانفجرت في الرجل تلك القنبلة أيضا.

وقابل السودانيون الغارات الجوية بشجاعتهم المعهودة. وكان قائدهم الميداني يطوف على جنوده النوبة متفقدا إياهم إبان غارة جوية شديدة الوطأة فوجدهم جالسين تحت شجرة يستمعون لغناء من حاكمي (فونوغراف) كان معهم.

كانت الحرب بالنسبة لكثير منهم "لعبة حظ lucky dip « لا بد أن لهم فيها فرصة الفوز بجائزة ما. ففي إحدى المرات نظم الشيخ عبد الله بكر، الذي يسمى أيضا بنده بكر، أو قوة بكر (لعل المقصود هو عبد الله دود بنجة. المترجم) قوة أقترح بها مسافة تبلغ أربعة أميال في وسط أعشاب عالية كثيفة للهجوم على الإيطاليين. ووفق رجال تلك الحملة في مهمتهم بأكثر مما توقعوا، إذ أنهم بدأوا زحفهم نحو العدو كرجال مشاة، وعادوا منتصرين إلى قواعدهم وهم على ظهور بغال غنموها من عدوهم. لا شيء يوقف أمام حماسة أولئك الرجال. فعند الهجوم على قيسان في العاشر من فبراير 1941م قفز الشيوخ وغيرهم من المتحمسين على ظهور حميرهم أو حتى عدوا على الأقدام للمشاركة في وسط تلك المقتلة.

وظلت كسلا في أيدي الايطاليين لنصف عام كامل. غير أنه على الرغم من الأخطار والحرمان، واصل مجلس المدينة تحت قيادة السيد محمد عثمان الميرغني وشقيقه السيد الحسن الميرغني عمله بأفضل ما يمكن (المذكوران هم أبناء أخ السير السيد علي الميرغني الذي سبق له تقديم خدمات جليلة للبريطانيين قبل نحو خمسين عاما مضت). وكانا قد خاطرا بحياتهما في سبيل انقاذ حياة الكثيرين بتوزيعهما لما كانا قد ادخراه مخبوءا منذ سنوات تحسبا لسقوط كسلا، وساعدا الكثيرين على الهرب من المدينة، وحالا بين الغزاة المنتصرين وبين ضحاياهم من سكان المدينة.

ويحسب للسودانيين أنهم، رغم المعاناة والضيق في المعيشة، فإنهم لشدة اخلاصهم وولائهم للحكومة، لم يشوا قط بالأماكن السرية التي خزنت فيها الحبوب الغذائية. وكان لشيوخ وكبراء كسلا في غضون كل الأشهر الست التي بقيت فيها كسلا تحت الاحتلال الإيطالي الفضل في إرسال كثير من التقارير الإخبارية القيمة للسلطات الحكومية. وكانت إحدى العاملات في نقل تلك المعلومات قابلة تدربت قبل سنوات في «مدرسة تدريب القابلات» بأم درمان. لم أنقطع عن التفكير في تلك السيدة العجوز وشجاعته الفائقة وفي مخاطرتها بحياتها عديد المرات لتجلب الأخبار للبريطانيين أثناء مرورها عبر خطوط الإيطاليين الذين أخفقوا في معرفة ما تفعله، وظنوها تقوم بعملها المعتاد وهو تمشي وتجيء بينهم.

وأدت عائلة الميرغني وبقية شيوخ المدنية أدوارا بارزة في التحضير لتقدم البريطانيين إلى داخل أرتيريا. وكان أكبر معين للبريطانيين في ذلك الهجوم هو ناظر الهدندوة (محمد الأمين ترك، الذي أطلق

السودانيون المعتقلون

عيونه (جواسيسه) في كل مكان. وكان لنفوذه الشخصي أكبر الأثر في الحفاظ على حدود منطقته من الغزو، وفي اقناع الناس وحثهم لعمل كل ما في وسعهم لمساندة البريطانيين. وأفلح الناظر ترك في منع الإيطاليين من زراعة القطن في منطقته، رغم أن السودانيين ظلوا يزرعونه بنجاح تام كالعادة، على بعد أميال قليلة من منطقته.

كان لسوء وإخلاء السودانين (في مناطق الحرب) مخارج / منافذ (outlets) لا تخلو من بعض الغرابة، كان من أغربها قصة ذلك الصبي الذي كان يأتي لأروما يوميا حاملا قراءة منسوب النهر في كسلا! كانت وظيفة أبيه تقتضي أن يقوم بتلك القياسات يوميا، ولكن الغزاة الإيطاليين أوقفوه عن العمل وطردوه من المدينة. غير أن ولده الصغير لم يهن عليه ألا يقوم بأداء واجب والده، وظل يداوم على أخذ قراءات منسوب النهر طيلة أيام الاحتلال الإيطالي (بحسب ما ورد في كتاب بي. كينيدي - كوك المعنون «كسلا في أيام الحرب Kassala at War»).



وعندما أتى شهر يناير من عام 1941م، كانت الاستعدادات للزحف الكبير قد اكتملت. وأتت التعزيزات والمدد من كثير من المناطق - كانت في البدء قليلة ومتقطعة وبطيئة في الوصول من آسيا وأفريقيا وأماكن نائية أخرى. ولكنها الآن اتحدت في سيل واحد نحو مكان واحد هو مناطق حدود السودان مع الحبشة، وعلى طول المحيط الهندي، والهدف بالطبع هو دحر الجيوش الإيطالية في الشمال والجنوب والغرب والشرق.

كان السودانيون يتطلعون بشوق إلى ذلك اليوم. وكانت شهور انتظار النزال مع العدو مضجرة وعسيرة عليهم، إذ أنهم رغم حبهم لخوض المعارك، إلا أنهم لا يكادون يطيقون البعد عن أزواجهم وعائلاتهم. وكانت المشاكل العائلية التي تنشأ عن غياب الجنود عن زوجاتهم أو خطيباتهم غير معروفة في أفريقيا.

ومنذ ذلك التاريخ خف أوار الحرب الدائرة على الحدود السودانية، رغم وجود بقية من أصدائها البعيدة في جبال الحبشة وتلال أرتيريا. مع مرور الشهر القلقة، بدأت القوات تصل إلى كينيا البعيدة تحت قيادة اللواء كينغهام من روديسيا الشمالية وروديسيا الجنوبية، وجنوب أفريقيا، وتنجانيقا، وكينيا، وأوغندا وأستراليا واسكتلندا ونيازي لاند وساحل الذهب (الآن ملاوي وغانا، على التوالي. المترجم). وأرسل الكنفو البلجيكي إلى السودان لواء مشاة مدعوما ببعض المدافع ووحدة إسعاف ميدانية. وبعثت قبرص بسريتين من البغال مع سائقيها. وساهمت جنوب أفريقيا ببعض الطائرات المقاتلة من نوع غلاديتور مع طياريهما، مع ست سرايا للنقل مع سائقين ملونين. أما أفريقيا الوسطى الأفريقية فقد بعثت بكتيبة تشاد. وبعث الفيلق الأجنبي ببعض المفارز (والفيلق الأجنبي هو وحدة عسكرية من الجيش الفرنسي بقيادة ضباط فرنسيين وجنود من الدول التي تستعمرها فرنسا، تأسست في ثلاثينيات القرن التاسع عشر لخوض الحروب الاستعمارية في فرنسا. المترجم) مع فرق عسكرية جزائرية تسمى الصبياحية. وبعثت فلسطين بسرية قوات خاصة (كوماندوس) مكونة من عرب ويهود. بينما أتت من إنجلترا أربع كتائب مشاة، وأتت من أسكتلندا

السودانيون المستقلون

كتيبتان من كامبيرون هايلاندرز Cameron Highlanders ومشاة المرتفعات الخفيفة Highland light infantry .

وسُمعت في البلاد في تلك الأيام لغات غريبة يتحدث بها غرباء في بلاد غريبة. فهناك الجزائريون (الفرنسيون) ورجال «بنادقة الملك الأفريقية» يعملون جنبا إلى جنب العرب من سهول السودان أو النوبة الآتين من مناطقهم الجبلية. وهناك رجال قصار القامة من الكنفو البلجيكي يقاتلون كتفا بكتف مع رجال طوال القامة من أحراش ومستنقعات السودان، ويعدون أنفسهم زملاء سلاح لمحاربين قادمين من جبال الهند. وكان هناك شعوب القرهولي والبلوش والبنجاب والماراثا انضموا لرجال حصان اسكينر Skinner's Horse (هو فوج من سلاح الفرسان بالجيش الهندي أسسه جيمس اسكنر، المترجم)، ورجال من مدن وأرياف إنجلترا واسكتلندا. كل أولئك كانوا يختلفون في كل شيء تقريبا عدا في حبهم واخلاصهم لقضيتهم النبيلة الواحدة.



وبما أنني معني في هذا الكتاب بـ «قوة دفاع السودان»، فسأستعرض هنا بإيجاز طرفا من الأعمال البطولية التي قام بها السودانيون (مع بعض أفراد قوات الحلفاء) عند الدخول إلى أرتيريا والحبشة، إلى أن توجت تلك المعارك البطولية في آخر انتصاراتهم في غوندار وأمبا الاقي Amba Alagi (التي جرت في مايو من عام 1941م. المترجم).

لم تعد «قوة دفاع السودان» القليلة العدد والعدة بمفردها في

ساحة القتال بعد أن تم تعزيزها بوصول قوات من جهات مختلفة. وتم استيعاب أفراد «قوة دفاع السودان» تحت قيادة أوسع، وشاركوا ببقية القوات الأخرى التي قدمت للبلاد مجد الانتصارات العظيمة.

وبسبب قلة عدد جنوده لم يكن بمقدور العقيد كيف أن يفعل شيئاً غير محاولة صد هجمات العدو في أقصى الجنوب، على الحدود مع أوغندا وكينيا والمناطق الإدارية الأخرى. فقد كان عليهم محاربة أعداء في مناطق في بلدان معادية تبعد نحو 350 ميلاً من قاعدتهم على النيل، وفي مناطق تقطن فيها قبائل صعبة المراس على جانبي الحدود تزعج السلطات الحكومية بنفس القدر الذي تفعله القوات الإيطالية نفسها. غير أن «قوة دفاع السودان» كانت لها في المناطق الأخرى مساحة ونطاق أوسع للعمل والابتكار وإظهار روح المبادرة والجرأة والمغامرة. وكانت تلك الروح هي ما ميزت أفراد تلك القوة الصغيرة في أيام الحرب الأولى. وكانت هنالك بين سواحل البحر الأحمر وحدود الروصيرص مجموعتان من سرايا المدافع المتحركة (M.M.G)، كانت المجموعة الشمالية منهما قد سميت «قوة الغزال» - «Gazelle Force» - سميت بهذا الاسم لأن تكتيكاتها كانت تعتمد على أن «تقفز وتقفز مثل الغزال» - مع سريتين من المشاة الراكبة من كتائب العرب الغربية، والكتيبة المختلطة Composite Battalion، وكتيبة الحدود، وقوة جدعون (Gideon Force). ومع نهاية عام 1940م كانت «قوة الغزال» تشمل أيضاً «حصان اسكينر» وبطاريات مدافع بريطانية. وعملت تلك القوات بنجاح تام حتى بلغت جبال (كرن)، حينما عادت تلك الوحدات لممارسة واجباتها المعتادة.

السودانيون المفتاحون

وكانت الكتيبة المختلطة مكونة من سرية مشاة من فيالق العرب الشرقية، وسرية رقم 6 من فيالق الهجانة (نوبة)، وجنود من الفرقة السادسة من فيالق العرب الشرقية (المشاة الراكبة)، إضافة لقوت بكر التي ورد ذكرها من قبل. ورغم أن المهمة الأساس لتلك الكتيبة المختلطة كانت هي حماية الحدود، إلا أنها قامت كذلك بتقديم خدمات جلية في عمليات تقدم القوات بالعمل أمامها، والقيام بغارات مباغته على خطوط اتصالات العدو، وجعله في حالة قلق وتساؤل دائم عن الأعداد التي سيواجهها، وعلى الأخص منعه في استقدام أي امدادات أو تعزيزات عند الهجوم على مرتفعات كرن. وشملت «قوة جدعون» (التي أعطيت ذلك الاسم لأن هدفها كان «ضرب العدو في وركه وفخذه» To smite the enemy hip and thigh كما ورد في الإنجيل Judges 15:8) بعض القوات الإثيوبية النظامية وغير النظامية، وجزء من كتيبة الحدود المكون من رجال أتوا من غالب مناطق السودان.

وفي يوم 18 يناير من عام 1941م أخلّى الإيطاليون كسلا قبل ساعات من هجوم كان من المقرر أن تشنه قوات الحلفاء. وكانت تلك القوات قد فعلت كل شيء ممكن من أجل تضليل وخداع العدو في أمر ذلك الهجوم وتوقيته وغير ذلك. وتوقف الجنود عن التقدم نحو المدينة على بعد أربعين ميلا منها، إما في مَسِيل نَهْر أَتبرا أو عند مناطق زراعة القطن في القاش قبل التقدم لأخذ مواقع هجومية. غير أن الأماكن الأخرى شهدت نشاطا محموما ومكشوفاً. وأقيم رصيف قصير على ساحل البحر الأحمر لم يكن مطلوباً، وشرع في تشييد خط للسكة حديد بين القصارف والقلابات لم يكن من المحتمل أن

يستخدم. وتم تنظيف المنطقة من الشجيرات والأعشاب لتشييد ممرات للطائرات لم تحط عليه طائرة قط. وأقيمت طرق اخترقت الغابات، ولم يستخدمها بشر. ووضعت هياكل مزيفة للمستشفى ولدبابات ومكبات للنفايات لخداع طائرات العدو التي قد تغير على المنطقة.

ثم بدأ الزحف الكبير.

تقدمت قوتان منفصلتان عبر كسلا وسيدرات إلى الشمال، وعبر تسني وبارنتو إلى الجنوب، والتقت القوتان بعد أسبوعين في أغوردات الواقعة على بعد 150 ميلا في داخل الأراضي الإرترية. وخلال تلك المسيرة تم أسر 6000 فردا وغنم 80 مدفعا و26 دبابة و400 شاحنة.

وأوقف ذلك التقدم السريع عند القوات البريطانية مرتفعات كرن - وكانت تلك أكبر عائق يصادف الجيش البريطاني طوال تاريخه الطويل. ولم يعد بالإمكان قياس التقدم بالأميال في الساعة على أرض مسطحة، بل بالأقدام في اليوم إلى أعلى منحدرات يستحيل تقريبا الصعود فيها. وكان على قوات اللواء بلات قبل بدء الهجوم أن تتقدم أولا عبر سهل عرضه لا يزيد عن ميلين، من دون غطاء سوى ما توفره قليل من الشجيرات الهزيلة أو مسيل نهر صغير جاف.

ورد في كتاب حملات الحبشة The Abyssinian Campaigns (وهو كتاب صدر عام 1942م وفيه وردت الرواية البريطانية الرسمية لتلك الحملات. المترجم) التالي: "وبدا فجأة جدار من تلال خطيرة حادة الارتفاع ولا يقل علوها عن 2500 قدما، وفي قممها

السودانيون المفتاحون

صخور صلباء. وستطلق في غضون الشهرين القادمين أسماء جنود لا يمكن نسيانهم على قمم تلك التلال. كان العدو يمتلك مدفعية ثقيلة ودفاعات طبيعية لا يمكن اختراقها تلتف حول قاعدته في كرن لتعطي خطوطا داخلية. وكانت تلك ملاحظة حصيفة من جيش العدو كبير العدديخفي فيها بغاله (التي كانت تعوزنا في حرب الجبال تلك) ومدافعه في السهل حيث كان لا بد للبريطانيين من أن يقيموا معسكرهم. “ وكان بإمكان الإيطاليين، وهم في مواقعهم الحصينة وعند متاريس الطرق والفجوات المخفية، أن يطلقوا على جنود بريطانيا سيلا لا ينقطع من القذائف والهاونات والرصاص والقنابل اليدوية في أثناء محاولتهم المتعثرة لصعود تلك التلال. واستمر ذلك القتال الضاري لشهرين متتابعين (ووصف ذلك مسجل بدقة وتفصيل في كتاب حملات الحبشة المذكور) إلى أن تحقق ما بدا أنه مستحيل التحقيق، وانفتح الطريق إلى أسمرامصوع. غير أنه حدث أيضا بعض النكسات، خاصة عندما نجحت بعض الفرق الإيطالية كبيرة العدد في التغلب على جنودنا وهم يصعدون في جراءة وإقدام لا يقهر إلى أعلى تلك التلال الوعرة. كانت الخسائر بينهم كبيرة. فقد قتل منهم بين 4000 إلى 5000 الفا من الفرقة الهندية الرابعة والخامسة. وتم قتل أو جرح كل ضباط في فرقة قرهاوال رقم 3 / 18، ما عدا واحدا منهم.

وقال ونستون تشرشل في خطاب ألقاه أمام مجلس العموم البريطاني في التاسع من أبريل من عام 1941م: “ كانت قواتنا الهندية هي أول من تقدم للقتال في أرتيريا، وحافظوا في غضون ذلك القتال، على كل الجبهات وتحت كل الظروف، بأسمى سمعة

عسكرية تليق بأبناء هندوستان. “ ولكن دعنا لا ننسى شجاعة وإقدام جنود الـ «كاميرون هايلاندرز» و«غرب يوكشير» والآخرين من الذيم لم يأبهوا بالصعاب وقلة العدد وضعف التسليح، وخاضوا المعارك الضارية وكسبوها. فقد أفلحت ست كتائب مشاة من إنجلترا واسكتلندا مع اثني عشر كتيبة هندية في قهر تلك الجبال العصية على الصعود. كانت عملية مشتركة بين الهنود والبريطانيين. فعلى الرغم من أن الجنود الفنيين (في سلاح المهندسين) المشاركين في تلك العمليات كانوا من الهنود، إلا أن كل رجال المدفعية كانوا قد أتوا من إنجلترا. ولما انتهت تلك المعارك وسقطت (مصوع)، أسرت قوات اللواء بلات ما لا يقل عن 40,000 رجلا من الأعداء وغنمت 300 مدفعا، بينما فر آلاف المجندين الإيطاليين من ساحة القتال وهجروا جيشهم وقضيتهم. وعقب ذلك الانتصار تقدمت القوات البريطانية بسرعة نحو جبل أمبا الاقي، حيث سيخوض الجنود السودانيون معركتهم الأخيرة في ذلك الجزء من الجبهة.

وإلى جهة الجنوب قدر للسودانيين الحصول على فرصة للقيام بعمليات بطولية رائعة وملفتة للنظر. ففي «قوة قدوين» وكتيبة الحدود» أدى هؤلاء الرجال أدوارا مهمة أفضت لفتح الطريق لعودة الإمبراطور هيلاسلاي لعاصمته.

وعلى الرغم من كل الصعوبات الهائلة التي قابلتها، كانت «قوة قدوين» (مصدقا للاسم الذي تحمله «تضرب العدو في وركه وفخذه») قد أفلحت بالفعل في شل حركة العدو وضربه ضربات موجعة في أكثر من معركة خاضتها ضده، ونجحت في تنظيف كل مناطق جوجام وإجلاء ما لا يقل عن ستة عشر من الكتائب الاستعمارية، وكتيبتين

من مجموعات (الباندا) النظامية، وأربعة من كتائب «القمصان السوداء» المزودين بالمدافع (نشأت «القمصان السوداء» كجناح شبه عسكري للحزب الوطني الفاشي الإيطالي، وسموا بذلك الاسم لارتدائهم قمصانا سوداء. المترجم). وقتل أو أسر في تلك المعارك نصف أفراد القوات الإيطالية، بينما فر النصف الآخر إلى (غوندار) للحصول على فترة راحة قصيرة من أهوال الحرب. وكان عدد أفراد «كتيبة الحدود» لا يتجاوز مئة فردا، مع ستين جنديا حبشيا نظاميا والفين من الأحباش غير النظاميين. ورغم صغر عددهم الكلي، إلا أنهم غنموا في تلك المعارك سبعة من مدافع الجبل، وخمسين مدفعا رشاشا ثقيلًا، ومئة وعشرين مدفعا رشاشا خفيفًا، وثلاثمئة فرسا، و15,000 بغلا، وكميات كبيرة من المعدات، وأسروا 7000 من رجال مشاة العدو مع سبعمائة من الإيطاليين المدنيين.

كان ذلك إنجازا مبهرًا. لا بد أن الإيطاليين يحسون (الآن) بالذهول الشديد والإهانة البالغة بعد أن استسلموا أمام قوة لا تمتلك سوى ثلاثة من المدافع الرشاشة الخفيفة من نوع برن! وكان يشاركونهم في تلك الأحاسيس قائد إيطالي آخر كان يقود 400 جنديا في قلعة موتا (موتا مدينة في شمال غرب إثيوبيا. المترجم)، واستسلم ذلك القائد لملازم بريطاني يرتدي زي رائد ويقود مفرزتين (أي مئة من الجنود).

ولا ريب أن رجال «قوة دفاع السودان» قد أدوا أعظم الأدوار العسكرية وانتصروا على عدو يفوقهم كثيرا في العدد والعدة. فعلى سبيل المثال خاضت تلك القوة (المكونة من ثلاثمائة رجلا سودانيا فقط)، بقيادة العقيد بوسستيد، معارك ضارية في ديبرا وماركوس،

السودانيون الممتثلون

حيث انتصروا على 12,000 من جنود الأعداء المزودين بمدفعية قوية ومدافع رشاشة والمتحصنين في المرتفعات الجبلية. وأفلح السودانيون في القيام بهجمات ليلية خاطفة ومتكررة بالحربا وقليل من القنابل اليدوية أزعت العدو وأجبرته على التخلي عن مواقعهم الحصينة.

ولم يكن ذلك هو الانتصار الأخير الذي شارك فيه الجنود السودانيون، إذ أنهم شاركوا أيضا في هزيمة الإيطاليين هزيمة نهائية في غوندار، في معارك استسلم فيها 11,500 من الإيطاليين و12,000 من الأفارقة لقوة أقل منهم عددا بكثير. وغنمت القوات المنتصرة 400 مدفعا رشاشا و24 مدفع هاون و48 بندق ميدانية مختلفة المقاسات. وقتل من القوات البريطانية في تلك المعارك الظافرة 116 رجلا، وجرح 386 آخرين. وحدثت خسائر أيضا في صفوف المتطوعين الأحباش. وأفضت تلك المعركة الفاصلة الى فتح الطريق نحو أديس أبابا.



بقي الإمبراطور هيلاسلاسي بصورة سرية في الخرطوم لشهور عديدة حيث سكن في ما سمي "القصر الوردي Pink Palace". وفي يوم 21 يناير عبر الإمبراطور الحدود ودخل الحبشة على ظهر حصانه، وأكمل مسيرته حتى بلغ عاصمته في الخامس من مايو - في اليوم الذي صادف خمس سنوات على الاحتلال الإيطالي.

وكان العقيد (العميد لاحقا) ساندفور قد قاد عملية عودة الإمبراطور، التي أحيطت بسرية كاملة، وأطلق عليها «المهمة 101»

السودانيون المستأمنون

Mission 101". ولم تكن عملية كبيرة ولا مهيبة، إذ لم يشارك فيها سوى ساندفور والنقيب كرتشلي (من فرقة لانسر رقم 12)، وطبيب عسكري مع إثنين من ضباط الصف البريطانيين، في رفقة نحو مئة من اللاجئين الأحباش. غير أنه كان على رأس تلك المهمة قائد مُمتاز. كان ساندفور رجلاً قويا لا يقهر ولكنه لطيف المعشر، يغطي الشعر كل جزء من جسده عدا رأسه. وسبق له الحصول على نوط (Bar) وسام الخدمة الممتازة (D.S.O.) في الحرب العالمية الأولى، وعمل لفترة قصيرة في القسم السياسي لحكومة السودان، ثم قضى خمسة عشر عاما من عمره في الحبشة في معية زوجه الشجاعة. وكان يشكو دوما من قلة المال الكافي لإعالة عائلته الكبيرة العدد. فكان يحاول الحصول على دخل إضافي بكتابة بعض المقالات في (تايمز) و(ديلي تلغراف)، وبزراعة الفراولة والبرقوق في مزرعة على ضفاف النيل الأزرق، أو ببيع المربي في أديس أبابا (بحسب ما جاء في كتاب Sealed and Delivered, by G. L. Steer). كان الرجل قد حاز على تعاطف وتقدير الكثير من رؤساء القبائل الحبشية، وكان مدركا للصراعات والخلافات بينهم التي حالت دون توحيدهم ضد الإيطاليين.

وعبر أفراد "المهمة 101" الحدود في منتصف أغسطس 1840م، عند بدء موسم الأمطار. ولم يكن هنالك وقت في العام يصعب فيه التحرك أسوأ من ذلك الفصل المطير. وظل أفراد المهمة يجوبون أرجاء منطقة جوجام لتوزيع منشورات الإمبراطور، ويضعون الخطط لوصول القوات، وتوزيع الأسلحة على الوطنيين الأحباش، ومحاولة إقناع رؤساء القبائل وكبراء العشائر لاستقبال الإمبراطور والحرب من أجل عودته. وكان الإيطاليون يجدون في محاولات

القبض على ساندفور، ويبحثون عنه برا وبالطائرات أيضا. وأفلح الرجل في مراوغتهم والنجاة من شباكهم.

وعندما دخل الإمبراطور مدينة أديس أبابا ظافرا، لم تجد الكتيبة السودانية والكتيبة الإثيوبية الثانية ثناء وإجلالا خيرا من تسيير طابور شرف أمام سيارة ساندفور التي كانت أمام سيارة أخرى كُتب عليها "الرأس الأصلح لقائد المهمة 101" (كما ورد في ص 67 من كتاب Abyssinian Campaign).

التجملات

كانت المهمات التي تصدى لأدائها السودانيون وحلفاؤهم متعددة، وكانت دوما عسيرة وفرص نجاحها تبدو شحيحة أو مستحيلة.

كان على هؤلاء الجند تحمل البرودة القارسة التي تصل حد التجمد وهم على قمم الجبال التي يصل ارتفاعها 14,000 قدم، ومكابدة «مرض الجبال»، وكانوا أحيانا أخرى يعانون من شدة القئ في مناطق مستنقعات مؤوبة بالبعوض، ويتسلقون حواف جبال يصعب الثبات عليها وهم يحاولون تفادي الرصاص المنطلق من فوهات المدافع الرشاشة، ويجاهدون لنقل معداتهم الثقيلة التي كانوا يضعونها مائلة أو معلقة على أعمدة من الخيزران لتحريكها إلى أعلى في المنحدرات، حيث يصعب إيجاد موطئ قدم. كانوا يتلمسون طريقهم وهم يبحثون عن عدو لا يرونه في وسط أعشاب قد يصل ارتفاعها لثمانية أقدام نثر فيها العدو الكثير من الألغام، ويقومون باختراق تلك الأعشاب الكثيفة، ويخوضون متعثرين أو يسبحون

السودانيون المستقلون

في مياه الأنهار أو الجداول. ومن لم يكن يجيد السباحة منهم يتعلق بذيل جمل حتى يعبر به عبر المياه. وكانوا كثيرا ما يكونون عطشى أو جوعى، يتقطرون عرقا في الحرارة القائظة، أو يرتجفون من الرياح الاستوائية أو البرد القارس الذي يخترق العظام. ورغم كل تلك الصعاب فقد واصل الرجال - وهم في روح معنوية عالية - في معالجة آلات الحرب الحديثة الميكانيكية الغريبة تماما على معظمهم، إذ أن معظمهم كان قد أتى من البادية. وكان عليهم تفادي أو التغلب على الألغام المزروعة، ومتاريس الطريق، والأسلاك المتشابكة التي تربط كل حافة بأخرى.

وكان عليهم أيضا، رغم الإرهاق والانهك، حمل الزاد والذخيرة وكل أدوات الحرب على ظهورهم لأميال طويلة، أو تحميلها على بغال أو إبل كان عددها يتناقص باستمرار وبسرعة بفعل قسوة الظروف في الحملة. ولم يبق من الـ 17,500 جملا التي بدأت مع الإمبراطور عند عودته لعاصمته إلا نصف ذلك العدد بسبب أخطار تلك الرحلة الطويلة أو بسبب هجوم "الذباب" (لعل المقصود هو ذبابة تسي تسي التي تنقل داء المثقبيات في الإبل). المترجم

وكانت مصاعب النقل كبيرة للحد الذي أضطر قادة القوات لاستخدام ثلث المحاربين لمسافات طويلة في أعمال نقل وترحيل وتخزين المؤن والذخيرة. ومع مرور الأيام تناقصت تدريجيا أعداد الرجال الذين بمقدورهم المشاركة الفعلية في القتال وذلك بسبب استخدام كثير منهم في حراسة آلاف الأسرى وحمايتهم من غضب الأحباش. وهنا يجب الإشادة بسلوك الأحباش، الذين لم تسجل ضد

أي واحد منهم محاولة انتقام من أي رجل أو أمراه أو طفل إيطالي، رغم المعاملة القاسية التي لقوها على أيدي الايطاليين.

وعقب الانتصار في الحبشة تم تعيين اللواء بلات قائدًا عاما للقوات في كل شرق أفريقيا، وهي منطقة تمتد إلى نهر زمبيزي. وكان مسئولا عن كل سجناء الحرب في كينيا وغيرها من المناطق. ولم يسمع ذلك اللواء أي قصة عن انتقام (من الأحباش).

سيبحث طالب التاريخ المحب للتحقيق والتوثيق - دون جدوى - في الخريطة عن أسماء البلدان التي جرت فيها كل أو بعض تلك الأعمال البطولية والانتصارات العظيمة. ولكن سيذكر ويسجل التاريخ دوما ذكرى لن تنمحي لأسماء مثل كرن وديبرا وماركوس وأمبا الاقي وغوندار والشقلة (حيث قتلت ثلاث سرايا من الكتيبة المختلطة نحو الفا من جنود العدو في قتال استمر ليومين ونصف يوم). خلدت تلك الأسماء شجاعة السودانيين وتحملهم للصعاب في تلك المعارك، والدور الكبير الذي لعبوه فيها، رغم أنه لم يعد فيما بعد دورا رئيسا. وسيذكر الناس لسنوات قادمة اقتحام القوات البريطانية وحليفتها القوات الهندية لمرتفعات كرن، ومسيرتهما الطويلة وهجومهما على مواقع تحصينات العدو الذي كان يفوقهم عددا وعدة، وتحملهما للأسقام وقسوة الطبيعة.

ولكن على الرغم من أن السودانيين كانوا قد حاربوا بضراوة وشجاعة في الحبشة، ولاحقا شاركوا مع الجيش الثامن - لحراسة صحاري جنوب ليبيا، ومدن ليبية مثل برقة وطرابلس، وحراسة خطوط الاتصال في المناطق التي احتلها الايطاليون، إلا أن أفضل إنجازاتهم كانت بلا شك خلفهم عندما بدأ الزحف الكبير لطردهم

السودانيون المستقلون

الايطاليين. وحتى وصول الفرقة الخامسة من الجيش الهندي بعد ثلاثة أشهر، ظلت القوات السودانية تحافظ على 1200 ميلا من الحدود السودانية ضد تغول الايطاليين بجنودهم ودباباتهم وطائراتهم ومدفيعتهم الميكانيكية، رغم ضعف تسليحهم وقلة أعداد أفرادها (بنسبة 1:10 بالنسبة لجنود العدو). وأتى لمسرح العمليات الآن اللواءات والضباط النظاميين بعد أن كان من يقود المعارك هم الرواد والنقباء والمدنيين المتطوعين (وقد أنجز هؤلاء بالفعل انتصارات لا تنكر). واختفت من مسرح العمليات بعض المجموعات الصغيرة (الغريبة) التي حملت أسماء مثل قوة ميدو، وقوة ديمسي، والقوة الثلجة، وقوة الغزال، وقوة كير، وقوة بكر، وقوة قدوين، رغم أنها كانت قد أحرزت الكثير من الانتصارات الباهرة. وعاد أفراد تلك الجماعات إلى حياتهم المدنية المعتادة في مجال الزراعة والرعي والصيد وهم في غاية الفخر بأنهم قاموا بالواجب الذي تطوعوا لأدائه على أكمل وجه، وانتصروا على الأعداء في كل المعارك التي خاضوها ضده. ولا أظن أن هؤلاء المتطوعين كانوا يدركون تماما مدى أهمية صنيعهم البطولي وصددهم للغزو الإيطالي. فلو قدر للإيطاليين النصر وفقد السودان فقد كان طريق الشرق سيفتح على مصراعيه لقوات دول المحور، وكان أمد الحرب سيطول، وكان ذلك سيفضي لنتائج كارثية.

وقلما يحدث أن تجتمع عناصر متباينة عديدة في وحدة كلية متناغمة. كانت قوات دول الكومنويلث قد حاربت في السودان وشرق أفريقيا من أجل تحرير البشرية. فقد اتحد من أجل تحقيق ذلك الهدف الأفارقة والآسيويون والأوروبيون ورجال من دول

الكومنويلث - تم جزئيا تسليحهم من العالم الغربي، ومُدوا بالغذاء جزئيا من الأجزاء الواقعة على الجهة المقابلة من الكرة الأرضية (antipodes). وأحتفل كل هؤلاء سويا بالنصر المشترك الذي أحرزوه. وعندما أعلن اللواء وليام ويثرأوول (القائد العام للفرقة الأفريقية الحادية عشرة في الحبشة. المترجم) عن الانتصار النهائي عقب سقوط غوندار وأرسل رسالة تهنئة لقواته، قرئت رسالته بما لا يقل عن عشر لغات مختلفة. كان جنده بالفعل يستحقون التهنئة. لم يكن مجموع قواته من مختلف البلدان يفوق سبعين ألفا ولكنها أفلحت في الحاق هزيمة ماحقة بعدو يفوقه في العدد والعدة، دون أن تخسر هي - للغرابة - أعدادا كبيرة من جندها. ومع مرور الشهور بدا أن الجيش الإيطالي سيخسر الحرب لا محالة، ففر من صفوفه عشرات الآلاف من الأهالي الذين تم تجنيدهم في ذلك الجيش. وتم في نهاية المطاف طرد الإيطاليين من كل أرجاء أريتريا وكل غرب الحبشة تقريبا إلى أديس أبابا.

لا ريب أن الجنود قد وجدوا أن كل الصعوبات والأخطار والمشقات التي كابدوها تستحق البذل عندما يتأملون في كمية ما كسبوه من غنائم وأعداد من أسروهم من مقاتلي العدو الإيطالي. ولعل جنود الفرقة الهندية الرابعة كانوا أكثر الذين يحسون بذلك، فقد كانوا قد نقلوا على عجل إلى مرتفعات (كرن) بعد أن كانوا قد أحرزوا عددا من الانتصارات الباهرة في رمال الصحراء الغربية في مصر.

ربما سيضع التاريخ معركة (كرن) كأحد أهم المعارك الحاسمة في الحرب العالمية الثانية. فإن أي تأخير في تدمير القوات الإيطالية في شرق أفريقيا كان سيعني بالضرورة تعطيل قوات كبيرة ومعدات

السودانيون الممتثلون

حربية كثيرة عن المشاركة في الدفاع عن مصر في وقت شديد الحرج. ويعزى توفير تلك القوات والمعدات الحربية في مناطق أخرى لشجاعة وحنكة اللواء بلات، الذي قرر مهاجمة ما بدا أنه حصون منيعة لا يمكن اختراقها، مخالفًا ذلك لآراء بعض معاونيه. وأتى انتصاره الكبير الذي توج به كل انتصارات المعارك التي خطط لها نتيجة لتحضيرات مضمّنة امتدت لشهور.

لم يكن يقود حملة كبيرة فحسب - وكانت تلك هي الأولى التي حسمت بانتصار نهائي في الحرب العالمية الثانية - بل كان مسؤولاً عن كل التدابير والتحركات العسكرية في السودان، إضافة لكل المشاكل المدنية المصاحبة لها. فكان كثيراً ما يستقل الطائرة من جبهة القتال للخرطوم لمعالجة تلك المشاكل ساعة ظهورها. غير أن النصر النهائي لم يكن ليتحقق إلا بفضل بصيرته المبتكرة (والباكرة) حيال الدور الذي يمكنه أن تؤديه سرايا المدافع المتحركة إن نشبت الحرب. وكان هذا قبل بدء الأعمال العدائية بوقت ليس بالقصير. وعلى الرغم من أن سرايا المدافع المتحركة لعبت دوراً ثانوياً فقط في المراحل المتأخرة للمعارك، إلا أن دورها في مراحل الحرب الأولى كان قيادياً وبالغ الأهمية. وإن كان دورها في التقدم الناجح نحو أرتيريا وأثيوبيا ثانوياً، إلا أنها كانت شديدة الأهمية في الدفاع عن السودان. ولولا ذلك الدور الدفاعي الحاسم لما كان بالإمكان القيام بأي عمل هجومي على الإيطاليين في الحبشة وأرتيريا.

إنه لمن دواعي الغبطة والسرور أن يتأمل المرء في أن ما قامت به تلك القوات سيظل باقياً ولن ينسى. أي ذكرى رائعة للأموات، وأي الهام أكثر نبلاً للأحياء يمكن أن يوجد أكثر مما ورد من ثناء وإشادة

بالسودانيين في التقرير السنوي عن حملات الحبشة:

«إن سقط السودان الإنجليزي - المصري، فسنفقد أيضا كل خطوط الامداد إلى الشرق الأوسط حتى البحر الأحمر، وعبر أفريقيا من توكرادي إلى الخرطوم. وسيغدو الدفاع عن نفسها مستحيلا. وعمليا لن تكون لدينا جبهة (قتال) في الشرق الأوسط فالفريق بلات ورجاله كانوا قد أفلحوا في خداع الإيطاليين بأن قواتنا أكبر عددا وأقوى تسليحا مما هي عليه في الواقع. ووقع عبء تلك المهمة العسيرة والحيوية بصورة رئيسة على سرايا المدافع المتحركة - وكانت كلها قوات سودانية مع ضابطين بريطانيين فقط لكل سرية - لا ريب أنهم يستحقون في معركتهم بأفريقيا ذات الثناء الذي ذكره رئيس الوزراء وهو يشيد بطياري سلاح الجو الملكي في معركة بريطانيا، حيث قال إنه من النادر أن (يدين الكثيرون بالكثير لقلّة قليلة).

النهاية





رقم الإيداع: 2020/0118

